مذاهب وشخصيات



شخصيات مشهورة ومغمورة

بقلم

دكتور جمال الدين الرمادي



مذاهب وشخصيات

شخصيات مشهورة ومغمورة

بقلم

الدكتور جمال الدين الرمادي

مقدمة

لمحات من حياة المشاهير

من منن الله على خلقه أن جعل لكل امرئ موهبة خاصة ، وميلا ظاهرا يمتاز بهما على غيره ويتفوق بهما على سواه ، وكثيرا ما تتجلى أمارات هذه الموهبة ، وتتراءى علامات هذا الميل منذ الطفولة ، وبذلك قسم علماء النفس الميول قسمين هما : ميول فطرية وميول مكتسبة ، والميول الفطرية هى التى تنشأ مع الانسان منذ الصغر ، وتنمو معه على مر الايام ، أما الميول المكتسبة فهى تلك التى يكتسبها الانسـان من البيئة المحيـطة به ومن قراءاته واستعداده ، وتجاربه ، واشتراكه فى معترك الحياة ٠

وكثيرا ما تبرز تلك المواهب منذ الطفولة ، وتتفتح براعمها عنـد الشباب اذا وجدت أرضا خصبة وتشجيعا وتأييدا ، فتشرق وتزهر ، وتنبت من كل زوج بهيج ، وزد على ذلك أن المثابرة فى سبيل النجـاح من أهم العوامل على بلوغه ، ولنا من تاريخ العلماء والأدباء والمفكرين أمثلة كثيرة تؤيد هذا الرأى كل التأييد ٠

فالمفكر الفرنسى الشهير فولتير كان منذ نعومة أظافره يميل الى الكتابة والاطلاع وحفظ قصائد قصيرة وهو فى الثالثة من عمره ، وكتب تراجيديا وهو فى الثانية عشرة من عمره ولكنها لم تظفر باعجابه فأحرقها بعد ان مزق أصولها شر ممزق ٠ وقد تجلت مواهبه فى أثناء دراسته فى اللغة والادب ولما بلغ السابعة عشرة عكف على دراسة القـانون ولولا مثابرته على الدرس ما ترك لنا هذا التراث الفكرى الخـالد الذى كان دستورا من دساتير الثورة الكبرى فى فرنسا ٠

وقل مثل ذلك عن العالم المعروف اسحق نيوتن مكتشف نظـرية الجاذبية والتى قدر العلماء قوته العقلية بمائة وسبعين درجة بما يزيد سبعين درجة على متوسط ذكاء الفرد العادى ، فقد كان منذ نعومة أظفاره يميل الى دراسة الميكانيكا والى صنع بعض الآلات ، فصنع ساعة مائية ، وطاحونة هوائية ، وعربة ذات محرك فى سيرها ، ولولا نزاعه مـع أحد أصدقائه ومحاولة التفوق عليه ، ومثابرته على الكفاح ما اهتدى الى نظرية الجاذبية التى كان لها أثر خطير فى الميدان العلمى ٠

بل ان هؤلاء العباقرة الذين خلدهم التاريخ بأعمالهم لم يولدوا فى أفواههم ملاعق من ذهب ــ كما يقولون ــ انما جاهـدوا وثابروا حتى أدركوا الغاية من كفاحهم وجهادهم ٠

ومثال ذلك الزعيم العظيم جورج وشنطن ، فقد ولد فى واشنطن عام ١٧٣٢ من أبوين فقيرين ، ومات أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره فكفلته أمه ، ثم اشتغل مساحا بولاية فرجينيا ، وقام بمسح الارض فى الاحراج والغابات ، وكان يلاقى صنوف المشقة فى سبيل ذلك ثم انتهى به المطاف الى العمل فى فرقة الميلشيا برتبة صاغ « ماجور » وأظهر فى أثناء خدمته جلدا عظيما ومثابرة فائقة لدرجة أنه قام برحلة شديدة الخطورة عبر الصحراء والمجاهل والاحراج فى شتاء قارس البرد ، هائج العواصف حتى يقدم احتجاجا رسميا على بعض الاعمال الحربية .

وأظهر واشنطن بسالة منقطعة النظير فى معركة التحرير حتى انتخبه الكونجرس الامريكى لقيادة الجيش الامريكى الجديد .

ولما أقر الدستور اختاره الشعب أول رئيس للجمهورية الجديدة وارتفع ابن الشعب نتيجة كفاحه ومثابرته الى كرسى الرياسة ..

واذا انتقلنا مع عالم السياسة الى عالم الادب وجدنا أديبا كبيرا مثل كارل ساندبرج نشأ فقيرا ، وعمل وهو فى الثالثة من عمره على مساعدة أسرته المكونة من تسعة أفراد ببيع الصحف ، وجر عربات الالبان ، حتى اذا مل هذا العمل اشتغل صبيا بدكان حلاق ، ثم عمل فى القطر الامريكية المسافرة الى الغرب كحامل للبضائع والحقائب . وقام بغسل الاطباق فى الفنادق بمدينة ويومنج وبنراكس وغيرهما . ولكنه كان فى أثناء هذا كله يثابر على القراءة والاطلاع دون سأم أو ملل حتى أخرج للناس أضخم ترجمة لحياة ابراهام لنكولن فى مجلد من ستة أجزاء كما أخرج للناس مجموعة رقيقة من الشعر ظهرت فى ديوان بديع أطلق عليه « قصائد شيكاغو » ، ونشر بعد ذلك سبعة أجزاء من الديوان ، وترجمة ضافية لحياته ، ومجموعتين من الاغانى الشعبية وغيرهما من الآثار الادبية التى خلدت اسمه فى سماء الادب والتاريخ .

وقل مثل ذلك عن الشاعر الامريكى الكبير « روبرت فروست » الذى ظل يتنقل بين الحرف ليعول نفسه ، فكان صبيا فى مصنع ، ثم كان مدرسا ، ثم محررا باحدى الصحف الاقليمية ، وظل يثابر وينتج للناس أروع الآثار الادبية حتى اختير أخيرا مستشارا لمكتبة الكونجرس لشئون الشعر الانجليزى ومنح جائزة « بولترز » للشعر أربع مرات وجائزة «لنفنسون» وجائزة «راسل ليونز» التذكارية والمدالية الذهبية من المعهد القومى للفنون والآداب وميدالية روزفلت وغير ذلك من الجوائز والميداليات .

وغنى عن البيان أنه لولا مثابرته (روبرت فروست) على القراءة والاطلاع وتنمية مواهبه الفنية ما استطاع أن يدرك هذه المنزلة العظيمة من التقدير ..

ولا أظن أن أحدا لا يقدر ذلك الصبى الصغير الذى كان يعيش مع بعض الاصدقاء فى لندن فى حجرة مظلمة تؤويه فى احدى الصيدليات ليلصق بطاقات الادوية على الزجاجات ويقضى نهاره كله فى هذا العمل

دون أن يشبع رغبته الادبية التى حال فقر والديه واثقـال كاهلهما بالديون دون تحقيقها ٠

ولكن الظروف المواتيـة قيضت له من ظفر منه بكلمات التشجيع وهو أحد أصدقاء والده ، فشجعه أن يكتب ويكتب دون أن يفتر عزمه ، ولولا مثابرته هو نفسه فى هذا الميدان ما استطاع أن يصل الى أوج الشهرة والمجد ٠

لم يكن هذا الصبى الا الكاتب الذائع الصيت « تشـارلز ديكنز » Charles Dickens الذى عزفت الصحف عن نشر قصصه ومقالاته فى بادىء الامر ، فلم يجد غضاضة فى الاستمرار على الكتـابة ، وانتهى به المطاف الى أن ارسل قصة لاحد الناشرين فقبل نشرها بعد أن ارسـل له كتاب شكر وتقدير ، ومنذ ذلك الوقت عكف الفتى على الكتـابة وترك مخزن الادوية الذى يعمل فيه ، وطفقت كتبه تنشر فى كل مكان وتترجم الى مختلف اللغات لقوة أفكارها ، ومتانة موضوعها ٠

وكذلك كان حـال الكاتب العظيـم هـ ٠ ج ٠ ويلز H. G. Wells الذى كان يعمل كعامل بسيط فى متجر لبيع الاقمشة ، وكان عليـه أن يسير كل يوم على قدمه ميلين أو أكثر حتى يصل الى هذا المتجر ، ومثل ذلك فى المساء ٠ حتى دب اليأس فى نفسه ، اذ كان يتناول نظير هذا التعب الشديد ؛ وهذا النصب المضنى العنيف أجرا ضئيلا لا يسـمن ولا يغنى من جوع ٠ ويظل فى عمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولا يعرف طعم الراحة حتى يعود الى البيت ٠ فصمم « ويلز » على الانتحار وأرسـل الى أمه فكتبت اليه تقول :

« لقد تركت يابنى مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة الشباب ، وأعتقد أن لك من العقل ما يصونك من خطل التفكير ، فافعل ما تشاء » ٠

ولكن نفسه كانت لاتزال عزيزة عليـه ، فلم يقـدم على الانتحـار وأرسل الى أستاذ له خطابا يبثه فيه شكواه ، وبلواه ، فما كان من هذا الاستاذ الا أن أرسل اليه يشجعه ويدفعه الى الامام ويعرض عليه فى ختام الرسالة أن يعمل كمدرس فى احـدى المدارس ، وكانت هذه هى نقطة التحول فى حياة هـ٠ج٠ويلز ، ومنذ ذلك التاريخ أقدم على البحث والدراسة حتى ظفر بالاسـتاذية ، وبلغ مجموع ما أنتجه من الكتت ٧٧ كتابا أكسبته أكثر من مليون جنيه ٠

تلك هى لمحات من حياة العباقرة ومنها تتبين أن مواهبهم لم تخرج الى النور الا بعد أن سمعوا كلمات التشجيع تلقى اليهـم ، وترن فى مسامعهم ، فخرجت كنوز العبقرية الى دنيا الوجود ، ولذلك كان لزاما علينا ألا نسخر مواهب الشباب وأن نشجعهم ونحاول أن نوجههم الوجهة الصحيحة ، ومن يدرى فربما يكون بين الشباب من يكون عبقريا عظيما كهؤلاء ؟

ولكن لا يغرب عن البال أن التشجيع لا يمكن أن يؤتى ثمرته فى الارض المجدبة القاحلة ولابد أن تصاحبه المثـابرة والجهاد ، فالعزيمة

القوية تستطيع أن تفل الحديد ، والارادة الصارمة تستطيع أن تدرك المطالب دون صعوبة أو عسر ٠

وفى هذا المعنى يقول البروفسور (وليم جيمس) : « لكى تستطيع أن تهدى الناس الى الطريق القويم وهو طريق المجد والخلود ، عليك أن تقدر مجهوداتهم وتثنى على نجاحهم مهما كان تافها لان هذا يدفعهم الى الامام ٠٠ غير أنه لابد من المثابرة فبدون المثابرة ٠٠ تذهب الكلمات هباء ٠٠ »

وما أجدرنا كمربين أن نتأمل هذا القول ، فرب كلمة تشجيع تخلق من التلميذ شخصا يقدر المسئولية ٠

ويغبط كثير من الناس تلك الاسماء اللامعة التى تتألق فى سماء الصحافة من المشاهير ويعتقدون أن أصحابها أدركوا توفيقهم فى عالم الصحافة بثمن بخس وأن الصحافة مهنة سهلة يسيرة يستطيع أن يقتحم أبوابها كل من هز اليراع ، والواقع أن المهنة الصحافية على النقيض من ذلك تحتاج الى استعداد عظيم ومواهب فذة ، وليس الصحفى بالرجل ذى الاسلوب الرشيق والالفاظ الطنانة والعبارات المنضودة كاللآلىء ، فقد انقضى ذلك العهد وولى الادبار !

صحيح أن الرجل هو الاسلوب كما يقول الناقد الفرنسى بوفون والصحفى هو الاسلوب كذلك ، ولكن ينبغى لنا أن نفرق بين أسلوب وأسلوب ، وكذلك ينبغى لنا أن نفرق بين الاسلوب اللغوى ومعناه الفنى ٠

حقا يتطلب من الصحفى أن يكون فصيح العبارة حلو الاشارة يجرى أسلوبه على ما اتفق من قواعد النحو والصرف ولكن الاسلوب الصحفى يتمثل فى صياغة الخبر وعرض المقال وابداء الرأى واظهار الحجة واخراج الجريدة ، وبقدر ما أوتى الصحفى من مقدرة فى هذه الجوانب يكون موفقا فى حياته الصحفية ٠

وليست الصحافة تجارة ، وليس الصحفى هو الموفق الى الربح من هذه التجارة ، انما هى فن أولا وقبل كل شىء ومن الناحية المادية ليست الا ضرورة تحتمها ظروف الحياة ٠ وقد كتب السير فيلبس جيبس فصلا عن الصحافة ذكر فيه أن الصحفى الموفق هو الذى يضع العمل أولا ويفكر فى الثمن ثانيا ٠

والصحافة عمل متواصل لا يعرف الكلال ولا الملال ، ويتطلب أعصابا قوية وصبرا واحتمالا ويقظة وانتباها ، والصحفى الموفق من عرف كل ذلك وراعى كل ذلك وتحرى الدقة فى الاخبار والقدرة على المصادر والتعدد فى المراجع والا كان مصير جريدته الخراب ٠

والصحفى الموفق هو من ينسى ذاته فى سبيل جريدته ، فيتلون بلونها ويسمع بأذنها ، وينظر بعينها ، ويتكلم بلسانها ويشعر

بمسئولياتها ، وقد صرح اللورد مورلاى فى أحد المؤتمرات الصحفية أن الصحافى ليس خادما فى مكتب ، بل هو مدير الافكار بوجه عام .

وقد ذكر الرئيس روزفلت في اجتمـــاع صحفي أن الصحفي الموفق خادم عمومي يشعر بالمسئوليه الملقاة على عاتقه فقال ما نصه : « طالما كنت أقول لرجال الصحافة ان فى أيديهم سلاحا من أحد الاسـلحة فى العصر الحديث ومن اللازم أن يستخدموه لاهــداف حسنة لا لاغراض سيئة فمحرر الجريدة ومراسلها في هــذا الزمان خادمان عامان ، والصحفى الموفق من يشعر تماما بالمسئولية فى عمله ، كما أشعر بالمسئولية فى رياسة جمهورية الولايات المتحدة الامريكيه » .

وانى أذكر أن المغفور له « انطون الجميل باشا » سئل يوما ما عن جوهر الصحافة فأجاب أنه قائم على ثلاثة أشـــياء حسن النية والخبرة والمقدرة ، فسئل : من الصحفى الموفق ؟ فقال : « انه هو من يستفيد من قراءة كتاب التاريخ فان فصوله مفصلة الصفحات والكاتب الموفق هو من اتسعت مداركه وامتدت قراءاته ولم يكن من قراء الكتاب الواحد كالمثل اللاتينى » .

والواقع أن (انطون الجميل) قد أصاب لب الحقيـــقة فالصحافة صاحبة جلالة والصحافي سواء كان قائد الرأى العـام أم لم يكن . ليس واحدا من حكام العالم كما تساءل كارليل الكاتب الانجليزى المشـــهور ، فيجب أن يكون الصحافي واسع الافق متفتح المدارك كثير الاطلاع على بينة من التيارات الفكرية والادبية والعلمية والاجتماعية المعـــاصرة وغـــير المعاصرة : اذا ضمه مجلس من رجال الادب استطاع أن يصـــول فيه وأن يجول ، واذا خالط رجال القانون استطاع أن يناقش وأن يعارض ، واذا تحدث الى رجالات الطب استطاع أن يفهم وأن يستوعب ، وصدق جدبون حين قال : « أوثر ميلى للاطلاع على جميع كنوز الهند » .

وقد قال أحد علماء الاجتماع : ان الله يوجـــه الشعوب عن طريق بعض أفرادها ، فاذا سلك هؤلاء الأفراد ســـيرة البر والخير ســلكت شعوبهم طريق البر والسلام ، وهكذا اذا سارت الصحافة سيرة قومية معتدلة فاصلة قادت الأمة الى شاطىء الأمان والسلام .

وقد لعبت الصحافة فى الحرب العالمية الأولى والحرب الكبرى الأخيرة دورا هاما كبيرا ، وكان لها أثر فعال فى تحطيم أعصاب الشعوب المعادية ورفع الروح المعنوية للشعب ، ويعتقد « ماك أرثر » صحة أثر الحـــرب السيكولوجية في الحصول على النصر فى الحرب الأخيرة ، وليس من شك فى أن الصحافة الموفقة والاذاعة الموفقة قد ساهمتا بنصيب كبير لاحراز هذا النصر ، فكانت تطبع طبعات خاصة لبلاد الأعداء وتحـــاول بكل ما أوتيت من جهد أن تفت فى عضدها .

وقد فطن الامبراطور نابليون العظيم الى فائدة الصحافة فى الحروب فأنشأ ادارة خاصة لها ، كما أن هتلر حاول من جانبه كل المحاولات المكنة نشر عقيدته عن طريق الصحافة ، وبذلت كل من وزارة الاســــتعلامات

الامريكية والبريطانية ما تستطيع بل ما لا تستطيع من جهد في سبيل نشر دعايتها عن طريق الصحافة الموفقة . وما أروع قول أحد الكتاب الصحفيين آذ يقول :

« ان الصحافة غير التجارة أو الحياكة أو الخياطة لتكون رهن ادارة (الزبائن) فى شكل مايطلبونه من الأدوات أو الاثواب حتى النجار أو الحائك اذا رأى (زبونه) على ضلال أرشده الى الصواب وبين له خطأه فى طلبه بحالة من الاختبار فى صناعته ، فكيف بالصحافة وهى مدرسة تعليم وارشاد ، وأصحابها أساتذة الأمة وقادة أفكارها ؟ »

فالكاتب الحر يدعو الى الحرية فى الرأى والاستقلال فى المبدأ ويعتقد أن الصحافة مدرسة كبيرة فى هذا المضمار لأنها تهذب الشعب وتعلمه ، فنحن فى حاجة الى استقلال فى الفكر والاستقلال فى العمل لكيلا نكون عبئا على الحكومة ، وقد ركز الكاتب يوسف الخازن سبب توفيق جورجى زيدان فى حياته الصحفية فى قوله :

« كان سبب نجاحه الباهر حسن الادارة واختيار المباحث وسهولة الادارة وينطوى فيها أمور كثيرة مادية وادارية كضبط المواعيد وحسن الطاعة واتقان الوجه التجارى وحفظ الملازمة بين واجبات الصحفى وميول الجماهير،وكان رحمه الله — على حد تعبير نجله انكريم اميل زيدان أن يقبل النصائح والارشادات فضلا أن يجعل سلوكه الصحفى مثلا لاولاده ونعم المثال ، وكان لا يسأم الكتابة ولا يسأم القراءة ينهب فرائدها ويغنم فوائدها غير محدود له طمع ... » .

فالصحفى الموفق اذن من لا يسأم القراءة والكتابة ويجد فيها راحة بعد عناء وسعادة بعد شقاء ، وقد نصح أحد الكتاب الصحفيين الأوربيين لمن يهوى الصحافة والكتابة قال : « اذا نازعتك نفسك يا بنى فى حب الصحافة والكتابة فاستيقظ والناس نيام وقد سكنت حركة الأحياء والاشياء ، وسائل نفسك : هل تؤثر النوم أو الكتابة ؟

فان أجابتك نفسك الى الكتابة فأنت فتى موهوب ، فالصحافة مجد ونصب وعرق ودم ودموع ... »

وفى الصفحات القادمة نقدم طائفة من أقطاب العلم والأدب والفكر فى الشرق والغرب بعضهم من المشهورين وبعضهم من المغمورين وبعضهم احتل ذكرهم المجلدات الضخمة من الكتب والصفحات الممتلئة من الصحف ، وبعضهم لم يكن له نصيب يذكر من الشهرة والذيوع .

ونرجو أن يجد القارىء فى هذه التراجم المقبلة متعة نحرص عليها ونهدف اليها وعلى الله قصد السبيل .

الأعشى

جاء في سيرة ابن هشام أنههو ميمون بن قيس بن جندلبن شرحبيل ابن عوف بن سعد ، منبكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بنعدنان، وهو شاعر عربى ولد قبل الهجرة فى العصر الجاهلى ، ويعرف بالاعشى الاكبر وذلك لتمييزه عن غيره من الشعراء الذين يحملون هذا الاسم ، ويكنى هذا الشاعر بأبى بصير ، وهذه الكنية هى المشهورة ، وورد اسمه فى كتاب شعراء الجاهلية مقرونا بكنية أبى بصير ، ويطلق عليه أبو الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى « اعشى بنى تغلب » ..

ولقب الشاعر «بالاعشى» لضعف بصره،وقد وصفه شريح بن السموءل حين أنقذه من الاسر بالأسير المضرور ، وروى ابن قتيبة أنه كان أعمى ويظهر أنه أصيب بالعمى فى أواخر حياته ، والدليل على ذلك قوله فى احدى قصائده :

على أنها اذ رأتنى أقا　　د قالت بما قد أراه بصيرا

وذهب المستشرق «هيفنز» الى أنه سمى ب «الأعشى» لأن هذه الكلمة وردت فى شعره . كما كان يطلق عليه (صناجة العرب) لفخامة شعره وجزالته ، ولما كان يحدثه من الجلبة الموسيقية ، اذ كان يترنم به صاحبه أو يتناقله المغنون .

وروى أبو الفرج الاصفهانى أن الاعشى تزوج امرأة من قبيلة (عنزة) من هزان ، فلم يرتح الى الحياة معها ؛ ولم يستحسن أخلاقها فطلقها ؛ وقال فى ذلك شعرا منه هذه الأبيات :

فبينى حصان الفرج غير ذميمة　　وموموقة فينا كذاك ووامقه

ويا جارتا بينى فانك طالقة　　كذاك أمور الناس غاد وطارقة

ويستنتج من شعر الاعشى أنه كان له ابن يقود بعيره فى أسفاره ، كما كانت له ابنة يعرض عليها شعره ، اذ كان قد ثقفها وعلمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام على حد تعبير الاصفهانى .

وقد نشأ الاعشى فى قرية تسمى « منفوحة » فى اليمامة غير أنه قام بعد ذلك باسفار كثيرة وأشار هو نفسه الى هذه الاسفار فى شعره

وطولت للمـــال آفاقه عمـان فحمص فاورشليم
أتيت النجـــاشي في داره وأرض النبيط وأرض العجم

كما قال كذلك فى قصيدة أخرى :

قد جبت ما بين بانقيـــا الى عـدن وطال فى العجم ترداديى وتسيارى

وكان تطوافه سببا فى كثرة معارفه وسعة ثقافته ، اتصل بنصارى نجران وبأهل الحيرة ، وشريح بن السموءل اليهودى صاحب تيماء ، بحصنه الذى يقال له (الأبلق) الى غير ذلك • وكان يذهب كل سنة الى سوق عكاظ فى الجزيرة العربية حيث ينشد أشعاره ويلتف حوله كثير من المعجبين •

وقد منحه أحد الولاة مائةمن الابل وكساه حللا وأعطاه كرشا مدبوغة مملوءة عنبرا وقال له : اياك أن تخدع عما فيها ، وفى هذا يقول (الاعشى)، « فأتيت بها الحيرة فبعتها بثلثمائة ناقة حمراء •• »

واتصل الاعشى بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة ومدحه ببعض عيون شعره ومن ذلك قوله المشهور :

أنت خير من ألف ألف من النا س اذا ماكسيت وجوه الرجال

وأعجب النعمان بشعره فقال له يوما : لعلك تستعيد على شعرك ؟ قال :

أحبسنى فى بيت حتى أقول ، فحبسه النعمان فأنشأ الأعشى القصيدة التى مطلعها :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى أن تزار

ونظم الاعشى فى الاسود بن المنذر أخى النعمان كذلك جمله من القصائد أشهرها تلك اللامية التى عدها أكثر الادباء معلقته :

ما بكـــاء الكبـير بالاطـلال وسـؤالى وما ترد سـؤالى ؟

كما اتصل الاعشى كذلك بملوك نجران أصحاب الدير العظيم المزين بالفسيفساء وكثير من الزخارف وحوله الاشجار والغدران •

ويمتاز شعر الاعشى بمعارفه الواسعة وثقافته الكبيرة ، واستخدام بعض الالفاظ الفارسيه التى عرفها فى أثناء رحلاته الطويلة الى الحيرة وماحولها من البلاد ، كما وصف سيل العـــرم والقصر الأبلق على ما يرويه أهــــل عصره ، وامتاز باكثاره من وصف الخمر وما اليها من نديم ومساق وقينة وعود ، واستخدم الأوزان الخفيفة ، أطال فى قصائده اطالة لم توهن من أسلوبه أو تقل من قيمته ، واستخدم القصص فى شعره على النحو الذى فعله أمرؤ القيس الشاعر أمير كندة فذكر قصة السموءل بن عادياء مع امرىء القيس ، وذكر قصة حبس النعمان بن المنذر بساباط ثم قتله تحت أرجل الفيل بأمر كسرى أبرويز ، ونظم الشعر فى الغزل حتى انه استهل

جميع قصائده بهذا اللون من الفن الذى فشا حتى فى قصائد الهجاء ، وتارة يتغنى بهريرة التى شبب بها فى مطلع لاميته :

ودع هريرة ان الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟

ونظم الاعشى بعض قصائده فى الحكمة ، كما كانت تأتى عرضا فى بعض قصائده ومثال ذلك قوله :

ولست بالاكثر منهم حصى   وانما العزة للكاثر

وقوله كذلك :

وفى ذلك ما يستفيد الفتى   وأى امرئ لا يلاقى الشرورا

وقال الشعبى : الأعشى أغزل الناس فى بيت وأخنثهم فى بيت وأشجعهم فى بيت ، فلما سئل عن هذه الابيات قال : ان أغزل بيت هو :

غراء فرعاء مصقول عوارضها   تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل

وأما أخنث بيت فهو قوله :

قالت هريرة لما جئت زائرها   ويلى عليك وويلى منك يا رجل

وأما أشجع بيت فهو :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا   أو تنزلون فانا معشر نزل

وأقبل مروان بن أبى حفصة الشاعر العباسى على يونس النحوى وعرض عليه بعض شعره فأعجب به وقال : انت أشعر من الأعشى ، فقال مروان : لقد سؤتنى اذ قدمتنى عليه !

أما أبو الفرج الاصفهانى فقد عده فى كتاب الأغانى أحد الاعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم وتقدم على سائرهم كما ذكر المرزبانى فى كتابه « الموشح » : سئل الاصمعى عنه : أفحل هو ؟ قال : لا ليس بفحل . قال المرزبانى : يعنى لا مزية له على غيره .

ودخل الأخطل على عبد الملك بن مروان وقد شرب خمرا وعنده الشعبى فلما رآه قال يا شعبى .. غلب الاخطل الشعراء جميعا حين قال :

وتظل تنصفنا بها قروية   أبريقهـا برقاعـة ملثوم
فاذا تعاورت الأكف زجاجها   نفحت فشم رياحها المزكوم

فقال الاخطل : سمعت بمثل هذا يا شعبى ؟ فقال اذا أمنتك فأشعر منك الذى يقول :

من اللائى حملن على المطايا   كريح المسك تستل الزكام

فقال الاخطل : ويحك ... ومن يقول هذا ؟ قلت الاعشى : أعشى بنى قيس بن ثعلبه فقال : قدوس قدوس غلب الاعشى الشعراء جميعا .

وهكذا اختلفت آراء النقاد ازاء شعره ، بيد أن الاعشى فى الواقع يعتبر من أبرع الشعراء فى العصر الجاهلى واعتبره أبو عبيدة من أصحاب المعلقات وجعله الرابع بينهم . بل لقد ظل محافظا على مكانته الأدبية حتى بعد ظهور الاسلام ، اذ روى أبو الفرج الاصفهانى أن حسانا سئل من أشعر الناس ؟ فقال : أشاعر بعينه ؟ قال : بل قبيلة .. قال : الزرق من بنى قيس بن ثعلبة . وروى أيضا أن رجلا من بنى كلاب خرج يختال وينـــادى من يفاخرنى ، ومن ينافرنى ببنى عامر بن صعصعة فرسانا وشعراء وعددا وفعالا ؟ فأجابه رجل : أنا . قال بمن ؟ قال ببنى قيس بن ثعلبة » فولى الأول هاربا . وقد كان الاعشى على رأسهم « أى بنى قيس بن ثعلبة » .

وخافت قريش اسلام الاعشى ، وكان ذلك قبل فتح مكة ، فقال له أبو سفيان وهو فى طريقه الى الرسول الكريم : « نحن وهو فى هدنة فتأخذ مائة من الابل ، وترجع الى بلدك سنتك هذه ، وتنظر ما يصير اليه أمرنا ، فان ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا وان ظهر علينا أتيته » .

فأخذ مائة من الابل وقفل راجعا الى أهله ، فألقاه بعيره قريبا من قريته فقتل عام ٧ هـ ، ٦٢٩ م نتيجة لجموحه وهياجه وعـدم تمكن الاعشى من التحكم فى عنانه . وكان قد أعد قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم جاء فيها :

ألم تغتمض عيناك ليـلة أرمدا | وعادك ما عاد السليم المسـهدا

كما جاء فيها :

فآليت لا أرثى لها من كلالة | ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
نبى يرى مالا تـرون وذكـره | أغـار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ويظهر أن الاعشى كان يطمع فى عطايا الرسول الكريم ، اذ صرح فى آخر مدحته بحبه للمال وحاجته الى الحصول عليه فقال :

ومازلت أبغى المال مذ أنا يافع | وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

وللاعشى مطولتان اختلف النقاد فى اختيـــار المعلقة منهما . وهاتان المطولتان هما مطولة :

ودع هريرة ان الركب مرتحـــل | وهل تطيق وداعا أيها الرجل

والأخـــرى :

ما بكـــاء الكبير فى الأطـلال | وسـؤالى وما يـرد سـؤالى؟

ويقول ابن النديم فى الفهرست: ان للاعشى ديوانا كبيرة أكثره فى المدح يتخلله شىء من الغزل والخمريات جمعه وشرحه أبو العباس ثعلب . وقـد نقلت قصائد وأبيات كثيرة منه فى كتب الأدب المختلفة ونشر المستشرق

الفرنسى « دى ساسى » لامية الاعشى السابقة فى باريس عام ١٨٢٦ ، كما نشر المستشرق « جاير » قصيدة « ودع هريرة » عـــام ١٨٧٥ فى مدينة « ليبسك » ، ونشر « ثوربكة » القصيدة الدالية فى مدح النبى ضمن مجموعة نشرها فى ليبسك أيضا عام ١٨٧٥ ، ونشر ديوان الاعشى عام ١٢٨ فى مجموعة المستشرق جيب تحت عنوان « الصبح المنير فى شعر أبى بصير » فى مدينة فينا ٠

وللديوان طبعة قديمة قام بها جماعة من العلماء وصدرت عن مطبعـة التقدم ٠

ونشر أبو زيد القرشى فى كتابه « جمهرة أشعار العرب » مجموعة من شعره كما أورد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء بعضا من شعره ، وكذلك فعل عبد القادر البغدادى فى خزانة الادب وأبو الفرج الاصفهانى فى الاغانى، والأب لويس شيخو فى كتاب « شعراء النصرانية » بيروت عام ١٨٩٠ ٠

ولعل خير ما نختتم به هذا البحث أن تردد ما ذكره عبدالملك بن مروان لمؤدب ابنه « أدبهم برواية شعر الاعشى ، فانه ـ قاتله الله ـ ما كان أعذب بحره ، وأصلب صخره ! »

أمامة بنت الحارث

أمامة بنت الحارث سيدة من أكرم السيدات فى الجاهلية ، واعلاهن منزلة ـ وأرفعهن ذكرا ، فقد اشتهرت قبل الاسلام بعلو كعبها فى العلم والأدب ، وكانت فضلا عن هذا سيدة حصيفة الرأى ثاقبة الفكر تعرف واجبات الأسرة حق المعرفة ، وتعرف حقوق كل فرد فيها ودعائم سعادتها وهنائها وأسباب اضطرابها وشقائها وعوامل خيرها ورخائها ، ودواعى شرها ومنغصاتها .

وقد تزوجت ابنتها أم اياس الحارث بن عمرو أحد سادات العرب فنصحتها نصيحة ثمينة غالية قبل أن تذهب الى زوجها تعد من أروع ماقيل فى نصح العروس قبل زفافها ، وقد جمعت فى نصحها بين جودة العبارة ودقة الدراسة ، وعمق الفكرة . وتعتبر نصيحتها ثمرة تجارب طويلة وخلاصة حال سعيدة عاشتها أمها مع زوجها عوف الشيبانى أحد كبار قبيلة شيبان فى الجاهلية .

ومما قالته أمامة بنت الحارث فى هذه النصيحة قولها : « أى بنية ان الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل » وتشير فى ذلك الى أن النصيحة لو كانت للتوجيه الى الادب لكانت ابنتها أحرى الناس بعدم الاستماع اليها لانها ربيبة الادب والخلق ، ولكنها تذكرة لها على ذلك . ثم قالت أمامة : ولو أن امرأةاستغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما اليها لكنت أغنى الناس ،ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال » ..

ففى الوقت الذى تشيد فيه أمامة بكرم أصل ابنتها وثرائها تشيد بحاجه المرأة الى الرجل الذى خلقت له وخلق لها .

وتستطرد أمامة بنت الحارث قائلة : أى بنية انك فارقت الجو الذى فيه خرجت وخلفت العش الذى منه درجت الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا فكونى له أمة يكن لك عبدا »

وتمضى أمامة بنت الحارث تنصح لابنتها قائلة : « يا بنية ، احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا : « الصحبة بالقناعة والمعاونة بحسن السمع والطاعة ـ والتعهد لموقع عينيه والتفقد لموضع أنفه ـ فلا تقع عينه منك على قبيح ـ ولا يشم منك الا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ،

والماء أطيب الطيب المفقود . والتفقد لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه، فان حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله، والارعاء على نفسه وعياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والارعاء على العيال والحشم حسن التدبير .

ولا تفشي له سرا ، ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره ، لم تأمني غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره »

وفي هذه الفقرة تشير أمامه الى وجوب قناعة الزوجة بمعيشه زوجها، واطاعة أوامره واجابة مطالبه ، وضرورة العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، والاهتمام بزينتها وطيبها ورعاية الزوج فى طعامه وشرابه ، والاشراف على أبنائه وتوجيه خدمه ، وعدم الاسراف والتبذير وعدم افشاء أسراره أو عصيان أمره مما يترتب عليه عواقب وخيمة تهـــدد الحيــــاة الزوجية السعيدة ..

وتختتم أمامة بنت الحارث نصيحتها لابنتها بقولها : « اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والاكتئاب عنده ان كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والاخرى من التكدير وكونى أشد ما تكونين له اعظاما . يـكن أشـــــد لك اكراما ــ وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له موافقــة .

واعلمى انه لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت ، والله يخير لك . »

وهكذا عالجت أمامة بنت الحارث في هذه العبــــارة أسس سعادة الاسرة ووفاق الزوجين فى أسلوب حلو جميل وحكمة نيرة حصيفة ، فكلما فرحت الزوجة لفرح زوجها وحزنت لحزنه ، وتكدرت لكدره ، وتجاوبت معه في بأسائه وضرائه اشتد حرصه عليها ، وهذه ناحيةنفسية تنبه اليها علماء النفس والاجتماع فى العصر الحديث لارشــاد الزوجة الى الحيـــاة الزوجية الهانئة الرغيدة .

ومن العجب أن تنطق أمامة بنت الحارث بهذه الوصية الذهبية منذ نحو ألف وأربعمائة عام وتظل حتى اليوم دستورا حكيما لسعادة الأسرة ، وسجلا خالدا يجب أن تحرص عليه كل عــــروس حتى تمضى فى حياتها الزوجية فوق طريق مفروش بالورود والرياحين تقطف فيه زهور الأماني، وتجتنى فيه ثمرات المحبة والرباط المقدس .

من القرنين الاول والثانى الهجريين :

بين العمرين

لعل أهم ميزة تميز الاسلام أنه دين السماحة والعدالة والتضامن الاجتماعى والتكافل بين الرعية • ولا يحرص على شيء قدر حرصه على الفضيلة والرحمة بالضعفاء والرفق بالفقراء ، وجلب السعادة والهناء الى البائسين ، ولا ينفر من شيء قدر نفوره من الرذيلة والاستغلال والسيطرة•

وعلى هذا الهدى وعبر هذا السبيل والى هذا الهدف سعى السلف الصالح من المسلمين وكان الرسول الكريم المثل الأعلى فى سماحة الخلق ، وسماحة النفس وكرم الطبع والحدب على الرعية •

واشتهر من خلفاء المسلمين أميران طار صيتهما فى الآفاق فى توخى العدالة الاجتماعية فى أروع صورها وأجمل معارضها وهما الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب والخليفة الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز •

وقد أوضح عمر بن الخطاب للناس مذهبه فى العدالة الاجتماعية وحرصه على ألا يؤثر بالمال فريقا على فريق أو طائفة على طائفة فى خطبته التى جاء فيها : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق من أحد به ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله فى هذا المال نصيب الا عبدا مملوكا ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاده فى الاسلام ، والرجل وقومه فى الاسلام والرجل وعناده فى الاسلام » •

وفى خطبة أخرى قال : «لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى الا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على ألا القيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم »•

وهكذا رسم الفاروق عمر بن الخطاب منهجه فى العدالة الاجتماعية وعدم ايثار فريق بالمال دون فريق الا بمقدار دوره فى خدمة الاسلام والعمل على دعم أركانه وصيانة بنيانه •

ولما انتصر المسلمون على كسرى وتقوضت دعائم ملكه ـ نقل المسلمون نفائس قصره الى المدينة ، وهناك وقف عبد الله بن الأرقم وخاطب الفاروق عمر قائلا : اجعلها فى بيت المال حتى نقسمها فقال عمر بن الخطاب : والله لا يظلها سقف بيت دون السماء •

فتركت هذه النفائس الغالية وهذه الذخائر الثمينة بين صفتي المسجد صفة النساء وصفة الرجال ، وبات القوم يحرسونها حتى تنفس الصبح وانبلج النهار فكشف عمر بن الخطاب عنها الغطاء ، فرأى الذهب والفضة، ففاضت عيناه بالدموع وانسابت على خديه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف . ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله ان هذا ليوم شكر ويوم فرح وسرور ؟ فقال عمر بن الخطاب : لا والله ما فتح الله على قوم هذا قط الا جعل بأسهم بينهم وألقيت بينهم العداوة والبغضاء .

ونهض عمر بن الخطاب وشرع يقسم الغنائم بين المسلمين :

ولقد شاء القدر أن يحقق فراسة عمر بن الخطاب فلم يلبث أن تغير بعض الصحابة : فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف اقتنوا الضياع والدور وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

ولم تلبث أن اندلعت الفتنة الكبرى التى أطاحت بخلافة عثمان بن عفان وحينئذ تحققت فراسة عمر بن الخطاب فى أن المال يبث العداوة والبغضاء .

ومن أجل ذلك كان عمر بن الخطاب يحرص على انفاق الاموال في وجوه الخير والبر والقضاء على الفوارق بين الطبقات وكان يحاسب ولاته حسابا عسيرا فى تطبيق ذلك ويسأل عن مصادر ثروتهم وأسباب غناهم أو رفعتهم .

وقد حدث أن ولى أبا هريرة على البحرين فازداد ثراؤه ، فطفق يضربه بالدرة حتى أدمى جسده .

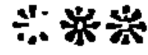
وفى أثناء ذلك كله كان يسهر عمر بن الخطاب على أمور الرعية وتتبع أخبارها فى آناء الليل وأطراف النهار ، وفرض مالا لكل مولود فى الاسلام، ورفع الجزية عن الشيوخ الفقراء المسنين الذين لا يستطيعون أداءها .

وروى الطبرى انه كان لا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا،ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس كما روى أنه خطب الناس يوما فقال :

يأيها الناس انى والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم « جلودكم » ولا ليأخذوا أعشاركم ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه ، فو الذى نفس عمر بيده لأقصينه منه ، فوثب عمرو بن العاص اذ ذاك وقال : أرأيتك يا أمير المؤمنين ان كان رجل من امراء المسلمين على رعيد ، وأدب بعض رعيته انك لتقصينه ؟ فقال عمر : اى والذى نفس عمر بيده اذن لأقصينه ، وكيف لا أقصيه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصى من نفسه ؟ ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الامراء وظلم الولاة ، فقال : ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .

وعن الاسود بن أبي يزيد قال : كان الوفد اذ قدم على عمر رضى الله

تعالى عنه سأل عن أميرهم فيقولون خيرا فيقـول : هـل يعود مرضاكم ؟ فيقولون نعم ٠٠ فيقول هل يعود العبد ؟ فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعف ؟ هل يجلس على بابه ؟ قال قالوا لخصلة منها — لا — عـزلة ٠



واحتذى عمر بن عبد العزيز حذو عمر بن الخطاب فى تطبيق العدالة الاجتماعية ونصرة الضعيف والاخذ بيـد المظلوم وتوزيع الاموال على المحتاجين والفقراء والمساكين ومساءلة الولاة عن مصادر ثرواتهم وموارد غناهم ٠

وحدث أن جيء الى سليمان بن عبد الملك بهدايا كثيرة فى آنية من الذهب فمر عليها ومعه عمر بن عبد العزيز وكلما مر سليمان بصنف منها التفت الى عمر وقال : كيف ترى هذا يا بن عبد العزيز ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، انما هو متاع الحياة الدنيا ، فقال سليمان : فو الله لو وليته ما أنت صانع فيه ؟ قال عمر اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء ، فقال سليمان : اللهم أشهد ، وقال عمر ذات يوم لمولاه مزاحم : انى قـد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟ فقال مزاحم عندى بضعة عشر دينـارا فقال عمر : وما تقع منى ؟ ثم مكث مزاحم قليلا وقال لعمر يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاءنا مال : سبعة عشر ألف دينار من بعض أموال بنى مروان فقال عمر : اجعلها فى بيت المال ، فان تكن حلالا ، فقد أخذنا منها مايكفينا، وان تكن حراما فكفانا ما أصابنا فيها ؟ فشق ذلك على مزاحم ورأى عمر ذلك فقال : ويحك يا مزاحم لا يكبرن عليـك شيء صنعته لله فان لى نفسا تواقة ، لم تتق الى منزلة فنالتها الا تاقت الى ما هو أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة ، وانها اليوم قد تاقت الى الجنة ٠٠

وحدث أن ضربوا لعمر بن عبد العزيز نقودا فكتبوا عليها «أمر عمر بالوفاء» فلمـا رآها عمر غضب وقال : كسروها واكتبوا أمر الله بالوفاء والعـدل ٠

وكتب اليه بعض عماله يقول : لقد أضررت ببيت المال ، فرد عليـه عمر بما معناه : أعط ما فيه فان لم يبق فيه شيء فلا ضير ٠٠

وهكذا يتضح لنا أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يحرص على اكتناز المال أو انفاقه فى ملاذه وملاهيه أو على أعوانه ورفاقه ، انما كان يتصرف به فى وجوه الخير أو البر ومعونة المحتاجين البائسين ، وكان يعتقـد أن رد المظالم هو المخرج من كل مأزق ، والمنقذ من كل هلاك ٠

يروى فى هذا أن سليمان بن عبد الملك خـرج الى بعض البوادى فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق ففزع سليمان ونادى على عمر بن عبد العزيز فقال : يا عمر ، يا عمر ٠٠ وكان بنو أمية اذا أصابتهم شدة فزعوا اليه فأجاب عمر ، هأنذا وأقبل عليه ، فقال له سليمان : ألا ترى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، انما هذا صوت نعمة ، فكيف لو سمعت صوت عذاب ؟ فدفع اليه سليمان مائة ألف درهم قائلا : خذ هذه وتصدق بها ، فقال عمر : أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : وما هو؟

فقال عمر ما معناه : قوم شاركوا فى ظلم الناس ؟ فاتعظ سليمان وجلس فرد المظالم .

هذه صورة خاطفة من عدالة الاسلام وانصاف الخلفاء المسلمين ، وهى تدل على ثورتنا الاجتماعية الحاضرة تستمد مبادئها من تعاليم الاسلام وأنها منزهة عن الهوى ومن وحى الدين الحنيف ، وتهـدف الى العدالة والمساواة بين جميع أبناء الوطن الواحد ، اذ يجب أن يكون لكل فرد من أفراد هـذه الأمة الفرصة التى لاى فرد آخر فلا تمييز ولا اسـتغلال بأى معنى من معانى الاستغلال ، ولا سيطرة بأى معنى من معانى السيطرة، كما يهدف الى ألا تخضع طبقة أو يخضع أى قسم من المجتمع لطبقة أخرى أو قسم آخر حتى نتخلص من تحكم الانسان فى أخيه الانسان واستغلال المجتمع بعضه لبعض أو استغلال الأقلية فى المجتمع للأغلبية فيه .

وكل هذه المبادىء القويمة والاهداف النبيلة من لحمة الاسلام وسداه وصفوته ولبابه ، ومن سنن السلف الصالح ونهـج خلفاء الاسـلام الراشدين ، ومنهم الفاروق عمر بن الخطاب ثانيهم ، وعمر بن عبدالعزيز خامسهم .

بشار بن برد

هو شاعر من شعراء العصر العباسي ، وزعيم المحدثين منهم واسمه بشار المرغث بن برد بن يرجوخ العقيلي ولاء ، البصري منشأ ، وأصل آبائه من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ونشأ أبواه بين بني عقيل بن كعب ، ثم أصبح بشار عتيقا لهم ، وتربى في منازلهم ، واختلف الى الاعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر .

وكان بشار أكمه أي ولد كفيف البصر ، جاحظ العينين ؛ قد تغشاهما لحم أحمر وكان مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، بشع الصورة مفرط الطول ، ضخم الجثة ولم يكن يحفل بالحكام أو يخاف أحدا من ذوي السلطان ، وكان يعتقد أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديد التعصب للفرس وشعوبيا متعصبا .

وقد برع في الشعر منذ نعومة أظفاره ، ويروى أنه كان ينظم بعض شعر الهجاء ، فاذا هجا قوما جاءوا الى أبيه وكان «طيانا» يعمل اللبن من الطين فشكوه اليه ، فينهال عليه أبوه ضربا ولطما واهانة وسبا ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير الضرير ، أما ترحمه ؟ فيقول بلى ، والله اني لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه الي ؛ فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فيقول : ياأبت ان هذا الذي يشكونه اليك مني هو قولي الشعر ، واني ان أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلي ، فاذا شكوني فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الأعمى حرج) فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا وهم يقولون : «فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار !» .

وقد نشأ بشار في البادية فتأثر بفصاحة الأعراب وبلاغتهم مما كان له أبعد الاثر في دقة أسلوبه ، وتحديد معانيه ، وسعة ألفاظه وقيل له ذات يوم : ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم ، وشك فيه وليس في شعرك ما يشك فيه فقال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى أن أدركت . فمن أين يأتيني الخطأ ؟ »

وعندما انتشر بين الناس خبر مجونه شرعوا يوقعون به لدى ولي الأمر حتى يتخلصوا من شره ، ويتجنبوا خطره ، ففر بشار من البصرة حيث اتصل ببعض أمراء بني أمية وظل يكيل لهم المدح ، وينظم لهم القصائد وعاش بين أكنافهم فترة طويلة حتى سقطت الدولة الاموية

وقامت على أنقاضها الدولة العباسية ، وعندئذ اضطرب عيش بشار وارتبك في حياته ، وتشاء الظروف أن يموت في هذا الوقت واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وهما من الولاة الذين كانوا يتربصون به الدوائر حتى يلقوه الى التهلكة ، فيعود بشار بن برد الى البصرة مرة أخرى ، وقد زال عنه اضطرابه ، بيد أن أقاويل الناس ظلت تطارده حيثما حل وأينما كان حتى قتل عام ١٦٨ هـ وقد نيف على التسعين وقيل وهو الراجح وعمره سبعون سنة .

كان بشار شاعرا مطبوعا ، وكان العالم الاصمعى يعجب بشعره لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول : « كان بشار مطبوعا لا يكلف طبيعته شيئا متعذرا » . أما الأخفش وسيبويه وهما من أعلام اللغة فقد كانا يستشهدان بشعره خوفا من هجائه ، كما جاء في الجزء الثالث من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ج ٣/٢٠٩ ، ٢١٠ طبعة دار الكتب)

وقد أجمع رواة الشعر ونقاده على أن بشارا هو رأس المحدثين من الشعراء في العصر العباسي ، وأسبقهم الى معاطاة البديع ، وطرق أبواب المجون والهجاء ، كما كان يمتاز بغزل حضري رقيق يسيل رقة وينبض لوعة وحبا كقوله :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم
واذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
رفهي ياعبد عني واعلمي أنني ياعبد من لحم ودم
ان في بردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

فهذه الابيات تبلغ درجة كبيرة من الرقة والجمال، فهو يصف ما يعانيه في حب صاحبته ، حتى ان طيفها يبعد عن جفونه النوم ، وينفض عن عينيه الكرى ، ثم يذكر جفاءها وصدها ، وكيف أنها تتدلل عليه ، ثم يأتي في البيت الاخير بمعنى جديد فيه شيء من الخيال ، فهو يحس أن جسمه قد صار ناحلا هزيلا ، لا يتحمل أن تتوكأ صاحبته عليه برغم ماكان مشهورا عنه من ضخامة الجثة وطول القامة وعلو الهامة .

وفي موضع آخر يقول بشار مخاطبا قومه ، شارحا حبه وهيامه ولوعته وجواه :

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
فقلت أحسنت انت الشمس طالعة أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيني صوتا مطربا هزجا يزيد صبا محبا فيك أشجانا
ياليتني كنت تفاحا مفلجة أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى اذا وجدت ريحي فأعجبها ونحن في خلوة مثلت انسانا
فحركت عودها ثم انثنت طربا تشدو به ثم لاتخفيه كتمانا

أصبحت أطوع خلق الله كلهم — لأكثر الخلق لى فى الحب عصيانا
يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة — والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم — الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية — يلقى بلقيانها روحا وريحانا ؟

فهذه الصورة التى تتراءى فى تلك الأبيات صورة جميلة تختلف عن الصور التى كنا قد عهدناها فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام .

وبهذا الشعر الرقيق نقدر كيف كان شبان البصرة ونساؤها وخلفاؤها يولعون بشعره ويتغنون به ، وقد يخرج بشعره وتشبيبه عن الجيد المألوف عند أهل زمانه حتى أنكر عليه العلماء والمتورعون ذلك انكارا ولا سيما عندما أدركوا أثره فى فتيان البصرة ، وقد نهاه الخليفة المهدى عن التشبيب فنظم بشار قصيدة يشير الى ذلك ويقول :

يا منظرا حسنا رأيته — من وجه جارية فديته
بعثت الى تسومنى — برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد — ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما — عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى — واذا أبى شيئا أبيته
ونهانى الملك الهما — م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع — عهدا ولا رأيا رأيته

ثم أنشد ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه الجائزة :

والحق أن بشارا هو أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين وفتق عن المعانى الدقيقة والصور اللطيفة ، فشعره حد وسط بين الشعر القديم والشعر الحديث .

ولبشار من المعانى المبتكرة والأخيلة البديعة فى فنون الشعر ماسار بذكره الركبان ، وفى ذلك يقول الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع ، المتغنين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه ، وقد طرق بشار كل فنون الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء ، والمجون ، وقد صرح بعقائد فاسدة فى شعره ، ورأى أن هذا يحببه الى طبقة الخلعاء ، فتمادى فى غيه وهجائه وأصبح مولعا بهذا اللون ، قليل المبالاة بالدين ، متهما بالزندقة لم يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، فمقته العلماء والمتكلمون .

وكان واصل بن عطاء يقول : « ان من أخدع حبائل الشيطان لكلمات لهذا الاعمى الملحد » غير أن نبوغه وبراعته ودعابته شفعت له لدى كثير من رؤساء الموالى فعاش بقية عمره فى البصرة حتى لاقى حتفه كما سبق أن ذكرنا آنفا .

وهاجى بشار حماد عجرد واحتدم اللجاج والقذف بالأقوال المقـذعة بينهما ، وظهر حماد عليه فى بعض أهاجيه، وآلمه ذلك وان لم يسقط منزلته كما هاجى بشار بن برد غيره من أقطاب الشعر فى هذه الفترة ، وقامت بينه وبين معاصريه مساجلات أدبية ذكر بعضها فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى .

ولبشار بن برد حكم ونصائح غالية ، تدل على خبرة بالناس ودراية بشئون الحياة كقوله :

اذا كنت فى كل الأمور معاتبـا   صديقك لم تلق الذى لاتعاتبـه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبـه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه ؟

وقوله فى قصيدة أخرى :

خليلى ان المـال ليس بنـافع   اذا لم ينل منه أخ وصـديق
وكنت اذا ضاقت على محـلة   تيممت أخرى ما على مضيق
وما خاب بين الله والناس عامـل   له فى التقى أو فى المحامد سوق
وما ضاق فضـل الله عن متعفف   ولكن أخـلاق الرجال تضيق

فهذه الأبيات تدل على جمال المعنى وتمتاز برقة الأسلوب ، وعمق الفكرة وتوضح العقلية الجديدة الممتازة فى ذلك العصر .

ومن أروع صوره الرائعة تلك الصورة البديعة الدقيقة الناطقة التى رسمها بشار بن برد برغم ذهاب بصره للجيش فى أثناء المعركة وقت أن يحمى وطيس القتال .

كأن مثار النقع فوق رءوسـنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـه

فنحن نكاد نرى ونكاد نلمس تلك الصورة الحية التى صورها لنا بشار فأحسن تصويرها، فبشار قد ولد أعمى ، فما نظر الى الدنيا قط ، ومع ذلك فانه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض كأنما أحاط بكل شىء منها علما ، حتى ان البصراء يعجزون عن الاتيان بمثله .

ومن أروع معانيه كذلك قوله :

لمست بكفى كفـه أبتغى الغنى   ولم أدر أن الجود من كفه يعـدى
فلا أنا منـه ما أفاد ذوو الغنى   أفدت وأعـدانى فأنفقت ما عندى

فعقلية بشار الجديدة أنتجت لنا هذه الأخيلة الواسعة الممتازة ، وتلك الافكار البديعة التى تبرز عمق الفكرة ، وتجعلنا نلمس بوضوح تلك المعالم الحضارية التى تظهر فى شعره ونلمس الفرق الشاسع بين هـذا الشعر الحضرى وبين الشعر الجاهلى مثلا .

ومن المعاني الفلسفية الرائعة التي افترعها ذهن بشار افتراعا ، قوله وهو يتحدث عن ممدوحه :

ليس يعطيك للرجاء أو الخـو ف ولكن يلذ طعم العطاء

فهنا جعل للعطاء لذة لا تدانيها لذة ، وسعادة لا تعدلها سعادة ، وهذا البيت يمثل العقلية الجديدة التي تفصل بين الشيء وغايته ، وتحوله عن وجهته المادية الى وجهته النفسية ٠

ويقول في موضع آخر :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني اليك فان الحب أقصاني ؟

فهذا معنى جديد مبتكر لم يكن متداولا من قبل ، وأين مثل هذا بالقياس الى البيت الآتي :

وعي الفعال كعي المقال وفي الصمت عي كعي الكلم

فبشار لايخصص العي بالكلام بل يجعله في المقال والفعال ، بل يذهب الى أبعد من هذا فيقيم في الصمت عيا يقابل عي الكلام ٠

وبرغم معاني بشار الرائعة التي أتى بها في شعره ، فانه كان في بعض الأحيان يهبط الى هوة عميقة من الاسفاف ، وعن خلاد قال : قلت لبشار : انك لتجيء بالشعر المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قلت : انك تقول شعرا تثير به النقع وتخلع به القلوب ، مثل قولك :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلما

الى أن تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال : لكل شيء وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في جاريتي ربابة ، وأنا لاآكل البيض من السوق ، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع البيض وتحفظه ، فهذا عندها أحسن من قول « قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل » عندك ٠

كما لام كثير من النقاد بشار بن برد لقوله :

ان سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل

واذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

فكان يعتذر بأنه قال ذلك في صباه أو من أجل المزاح ٠

وكان بشار يمتاز برقة الشعور برغم ما يبدو عليه من غلاظة في الطبع وجهامة في الصوت ، وبشاعة في المنظر ، ويروي الرواة أن ابن أخيه مر به

ومعه قوم فقال لرجل معه : من هذا ؟ فقال ابن أخيك .. فقال : أشهد أن أصحابه أنذال قال : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : ليست لهم فعال .

كما يروى الرواة أن أبا دهمان الغلالى قال : مررت ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده ، وليس معه خلق ، وبيده مخصرة يلعب بها ،وقدامه طبق فيه تفاح ، وأترج ، فلما رأيته وليس عنده أحد ، جئت قليلا قليلا وهو كاف يده حتى مددت يدى لأتناول منه ، فرفع القضيب وضرب به يدى ضربة كاد يكسرها فقلت له : قطع الله يدك يا بن الفاعلة .. أنت الآن أعمى ، فقال : يا أحمق فأين الحس ؟!

ويروى كذلك أن أحدهم سأله ذات يوم عن منزل أحد الأشخاص فجعل بشار يفهمه وهو لايفهم فأخذ بيده ، ومضى يقوده الى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكمو قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار الى منزل الرجل ثم قال له : هذا هو منزله ياأعمى ، فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور !

وكان بشار بن برد مع هذا سمح الخلق ، رضى النفس ، وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعرا فقال له أحدهم : استر شعرك هذا كما تستر عورتك ، فصفق بشار بيديه وغضب وقال له : من أنت ؟ ويلك .. قال : أنا - أعزك الله - رجل من باهلة ، واخوالى سلول ، وأصهارى عكل واسمى كلب ، ومولدى بأضاخ ، ومنزلى ببنى بلال ، فضحك بشار ثم قال اذهب ويلك ، فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استترت منى بحصون من حديد .

كما كان بشار يمزح ويحسن الدعابة : قال هلال يوما لبشار وكان صديقا له يمازحه : ان الله لم يذهب بصر أحد الا عوضه بشىء فما عوضك ؟ قال بشار : الطويل العريض .. قال هلال : وما هذا ؟ قال عندما أراك وأمثالك من الثقلاء .

وكان بشار يعتز بشخصيته وشعره اعتزازا عظيما ، وينعى على هؤلاء الشعراء الذين يسرقون منه معانيه وأفكاره : ومن ذلك أنه غضب على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع لديه بجماعة من اخوانه فجاءوه فى أمره فقال لهم : كل حاجة لهم مقضية الا سلما .. قالوا : ما جئناك الا فى سلم ، ولا بد من أن ترضى عنه لنا .. فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا .

فقام اليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه ثم قال : ياأبا معاذ أنا خريجك وأديبك ، فقال ياسلم من الذى يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

قال : أنت ياأبا معاذ ، جعلنى الله فداءك .. قال : فمن الذى يقول :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

قال : خريجك يقول هذا ـ يعني نفسه ـ قال : فتأخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري لا أرضى عنك أبدا ، قال : فما زال يتضرع اليه ويشفع له القوم حتى رضي عنه •

ولم يك بشار محبوبا من غالبية الناس وفي ذلك يقول خلف : كنت أسمع بشارا قبل أن أراه فذكروه لي يوما ، وذكروا بيانه ، وسرعة جوابه وجودة شعره ، فاستنشدتهم شيئا من شعره فأنشدوني شيئا لم يكن بالمحمود عندي فقلت : والله لآتيه ، ولأطأطئن منه ، فأتيته وهو جالس على بابه ، فرأيت أعمى قبيح المنظر ، عظيم الجثة فقلت : لعن الله من يبالي هذا ووقفت أنا أتأمله طويلا ، فبينما أنا كذلك اذ جاءه رجل فقال : ان فلانا سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع منك فقال : أو قد فعل ؟ قال نعم ، فأطرق وجلس الرجل عنده وجلست ، وجاء قوم فسلموا عليه ، فلم يرد عليهم فجعلوا ينظرون اليه وقد انتفخت أوداجه فلم يلبث الا ساعة حتى أنشدنا أبياتا بأعلى صوته وأفخمه مصوروا غيبته عند الأمير منها :

ناري تحرقه وبيتي واسع للمعتفين ومجلس معمور

قال : فارتعدت والله فرائصي ، واقشعر جلدي ، وعظم في عيني جدا ، حتى قلت في نفسي : الحمد لله الذي أبعدني عن شرك •

وقد أدرك بشار جريرا والفرزدق وهجا جريرا الا أنه أعرض عنه استخفافا فتألم بشار من ذلك وقال : لو هاجاني لكنت أشعر الناس •

وصفوة القول أن بشار بن برد كان امام المحدثين في الشعر ، وكانت معانيه مبتكرة خلابة وكان غزله رقيقا ورفيقا عذبا أخاذا مثل :

حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وتخال ماجمعت عليـ ـه ثيابها ذهبا وعطرا

كما كان بشار حكيما رزينا برغم خلاعته ومجونه وضرب الأمثال الصادقة على ذلك فيما نظم من شعر كقوله :

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى حكيم أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم

وقد بلغ مانظمه من شعر نحو ١٢ ألف قصيدة ، ولذلك جاهر بين يدى أهل الأدب بأن له ١٢ الف بيت جيد فقالوا له : هذا القدر لا يجتمع لكل الشعراء فقال : لي ١٢ ألف قصيدة ، ولم يبق من هذه القصائد الى أيام ابن النديم صاحب كتاب «الفهرست» الا ٩٠ ألف بيت ، ونتف متفرقة في كتب الأغاني وابن خلكان ، والشعر والشعراء لابن قتيبة •

أما ديوان الشاعر فقد طبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر فى ثلاثة أجزاء كبيرة ٠

أما عن مصير الشــاعر فقد حدث عام ١٦٨ للهجرة أن أمر الخليفة المهدى وهو بالبصيرة بجلده بالسياط فى حراقة بدجلة ، فضرب سبعين سوطا حتى مات ، ثم دفنه أهله بجانب قبر حماد عجرد ، وقيل : ان سبب قتله يرجع الى تلك الأبيات المشهورة التى هجا بها الخليفة المهدى ووزيره يعقوب بن داود ولا يرجع الى سبب زندقته :

بنى أميــــة هبوا طال نومكمو ان الخليفـــــة يعقوب بن داود

ضاعت خـلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعـــــود

من القرن الثالث الهجرى :

ابراهيم بن سيار النظام

هذا فيلسوف من أشهر فلاسفة الاسلام ، وأحد فرسان أهل النظر والكلام على حد تعبير الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » .

ولد فى القرن الثـانى من الهجرة وتوفى فى الربع الأول من القرن الثالث للهجرة على وجه التقريب ، وكانت له آراء رشيدة ، ونظرات سديدة فى اعجاز القرآن ، وتفسيره ، وتحليله وتفصيـله كما كانت له آراء فى الذات الالهية ، والصفات الربانية والأفعال العلية ، والقدرات الانسانيـة

ويقال : ان ابراهيم بن سيار النظام عاصر هارون الرشيد وحضر نكبة البرامكة ولكن هذا القول ينقصه الدليل غير أن الثابت أنه ولد فى البصرة، وانه لقب بالنظام لنظمه الشعر ، كما كان يحضر مجلس أبى الهذيل العلاف وكان يصحبه فى غدواته وروحاته ويحضر مناقشاته ومناظراته ، فتعلم منه فن الاستمالة والاقناع ، وقد طاف بكثير من البلاد الشرقية ، ونهـل من ثقافتها المختلفة ودرس مذاهب متباينة فاشتد ايمانه بالله ، وازداد تمسكا بعقيدته ، وكان يرى أن اعجاز القرآن بالصرفة ، يعنى أن الله صرفهـم وأعجزهم عن معارضته والاتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك .

والمعروف أن المتكلمين ذهبوا مذاهب شتى فى وجه الاعجاز : فقـال بعضهم :

ان وجه الاعجاز يقع فى النظم الغريب المخالف لنظم العرب .

وقال بعضهم: ان وجه الاعجاز من ذروة البلاغة التى اشتمل عليها ولم يأت أحد بمثلها .

وقال بعضهم : ان وجه الاعجاز فى النظم حينا ، وفى كونه أعلى درجات البلاغة حينا آخر .

وذهب بعضهم ومنهم الشريف المرتضى الى أن الله صرفهم بأن سلبهم العلوم التى يحتاج اليها فى المعارضة .

وذهب ابن حزم الى أن الله منع الناس من معارضته ، وكسا الاعجاز القرآن وسلبه جميع الخلق وأن قليله وكثيره معجز

ويرى بعضهم أن وجه الاعجاز فى القرآن أنه يخبر عن الغائب كقوله تعالى فى سورة الروم : «وهم من بعد غلبهم سيغلبون» .

والواقع أن اعجاز القرآن لا يرجع الى الصرفة فحسب ولا يرجع الى

إخباره عن الغيوب فحسب ، ولا يرجع الى أسلوبه الرصين وآياته المحكمات انما يرجع الى هذا كله فان ما اشتمل عليه القرآن من نسج متين ، وعبارة منتقاة ، ومعنى مبتكر ، وأسلوب قصصي جذاب خلاب ، وحكمة بالغة ـ ليفحم العرب ويقر عنهم بالعجز في المحافل ، وكان الكلام سيد عملهم وما جاشت به صدورهم يصلح به حال الناس في دنياهم وآخرتهم • وفاض به بيانهم حتى قالوا في كل مالاح لعيونهم ، وخطر على قلوبهم وكان فيهم العدد الكبير من العقلاء والنفر الغفير من أهل الحزم والحكماء وهم بعد هذا كله أشد خلق الله أنفة وأفرطهم حمية ، ومع كل هذا لم يعارضوه ولا تكلفه أحد منهم ولا أتى ببعضه ولا شبيه به ، ولا ادعى أنه قد فعل اللهم الا من كان أشبه بالمجانين ، ومحال أن تكون المعارضة في طاقتهم مع كثرة دهاتهم وبلغائهم وبعد الهمة وشدة العداوة ثم لايعارضوه ولا يجوز أن يكون في طاقتهم المعارضة بالكلام ، ثم يتجشموا الحرب ، وبذل المهج والأموال والخروج من الديار ، لان الاتيان بخير الكلام أيسر من القتال واخراج المال •

وتاريخ العرب حافل بكثير من الهراء الذى حاول المرجفون أن يحاكوا به القرآن بيد أنهم باءوا بالفشل والخسران المبين، وجاء كلامهم أشبه بهذيان المحمومين ، وتهاويل النائمين فقال مسيلمة الكذاب : الفيل وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل ، وقال : « ياضفدع تنعقين نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين » •

وغير خاف أن هذا الكلام أشبه بالأوهام والترهات وأقرب الى الطيش والحماقات منه الى الحديث المعقول الذى يخاطب القلوب والعقول جميعا •

وقد أبدى الجاحظ تلميذ ابراهيم بن سيار النظام رأيه في الاعجاز فقال في كتاب « حجج النبوة » : « لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ونسجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها ، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ، وانا لله ، وعلى الله توكلنا ، وربنا الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل • وهذا كله في القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ، ولو أراد الله أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه ما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان وسعد بن عدنان » •

وكان ابن سيار يرى عدم البعد في التأويل في تفسير القرآن، وانتقد ما يذهب اليه بعض المفسرين من تفسير المساجد بالجباه ، والابل بالسحاب لا الجمال ولا النوق والويل بواد في جهنم ، كما قسموا « سلسبيلا » في قوله تعالى : « عينا فيها تسمى سلسبيلا » الى كلمتين هما (سل و سبيلا) وكذلك ينتقد تفسيرهم للجلود في قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » بجعلها كناية عن الفروج ، وقوله تعالى : « وثيابك فطهر » بمعنى قلبك فطهر •

وهكذا مضى ابن سيار النظام ينتقد المفسرين ، ومقطع الرأى عنده هو البعد عن التأويل وترك التكلف والجرى وراء الغريب •

أما فيما يتعلق بذات الله فانه لا يخالف سائر المعتزلة من تنزيه الله التنزيه المطلق واثباته ذاتا قديمة ونفى الصفات الزائدة عن الذات ، وكان يقول : « ان الله لم يزل عالما حيا سميعا بصيرا قديما بنفسه لا بعلم وقدرة ، وحياة وسمع وبصر وقدم ، والله كامل ويفعل بمقتضى علمه وارادته هى فعله فهى المراد ، والله لا يفعل الا ما هو » فلا معنى للقول بأنه يقدر على القبائح ، فالقانون الذى تسير عليه الأفعال الالهية هو الكمال الواجب لله ، فالله لا يفعل ما دون الأصلح ، ولا يجوز على الله عز وجل فعل النقص وأن الله قديم والعالم حادث ومخلوق لله لغرض وهو المنفعة ، والله خلق الخلق لعلة تكون هى المنفعة والعلة هى الغرض فى خلقه لهم وما أراد من منفعتهم ، واذا كان الانسان عاقلا قادرا ، وجب عليه معرفة الله بالنظر والاستدلال ، والقرآن الكريم يحض على النظر والاستدلال ويدعو الى التفكير والتأمل ويحث على التمعن والتبصر فقال تعالى فى سورة آل عمران : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ، وقال فى سورة البقرة : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

وقال فى سورة الحج : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » .

وقال فى سورة يوسف : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

ومن أجل ذلك دعا النظام الى النظر العقلى فى الخير والشر ، والقاعدة عنده أن العقل والاختيار والفعل المترتب على ذلك هى التى توجب الثواب والعقاب فاذا عدم العقل أو الفعل أو الاختيار ارتفع التكليف وزال العقاب .

هذه بعض آراء ابراهيم بن سيار النظام التى تثبت أن الايمان اذا اقترن بالعقل كان أعظم رسوخا وأقوى ثباتا وأن الاسلام لا ينكر فضل العقل ولا يجحد أهميته ولا يغمط حقه انما يستعين بالعقل فى نشر تعاليمه ووصاياه وكلما كان العقل رائدا للقلب وهاديا له استطاع المرء ادراك الأمور وتتكشف أمام بصره الحقائق كلها شاهدة على قدرة الله عز وجل معبرة عن عظمته .

وقد قيض الله لابراهيم بن سيار النظام تلميذا من تلاميذه الذين نشروا آراءه وتعاليمه هو الجاحظ الأديب العربى المعروف صاحب المؤلفات والتصانيف الكثيرة ، فكان لسان صدق ودعوة حق لاستاذه ، ولا تخلو كتاباته من التأثر بمذهب النظام أن لم تكن صورة منه ، فيها كثير من التفصيل والتحليل والاسهاب والاطناب .

من القرن الثالث الهجرى :

أبو حيان التوحيدى

عالم مفكر متصوف عاش في القرن الثالثالهجرى بعدأن تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢ هـ وتمزقت الخلافة الى دويلات ، فاستولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستبد البريدى بالاهواز ، واســـتقل بنوبويه بفارس والرى والجبل واصفهان ، وانفردت ديلم بطبرستان وجرجـان وكرمان . وقامت الدولة السامانية فى خراسان وما وراء النهر ، ثم خلفتها الغزنوية بالهند وأفغانستان ، وأقام بنو حمدان ملكهم فى الموصل وديار بكر وربيعة واستقل الأخشيديون بمصر والشام ثم خلفهم الفاطميون ، وصارت اليمامة والبحرين بيدالقرامطة ونهض الفاطميون بالمغرب وأفريقيةثم بمصر والشام واستقل عبد الرحمن الناصر بالأندلس ولم يبق للخليفة العباسى الا بغداد وملحقاتها .

فى هذه الفترة عاش أبو حيان التوحيدى ذلك العالم الخبير باللغـة والنحو والادب ، والكلام والتصوف والفلسفة والفقه ، وربما لم يند له الا الطب والكيمياء والرياضة .

وقد اتصل أبو حيان بابن العميد كما اتصل بالصاحب بن عباد .. ودارت بينه وبينهما مساجلات ومناقشات أدبية كبيرة .

وقد اختلف الباحثون فى سبب تسميته بالتوحيدى ، فقيل : ان السبب فى هذا اللقب أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد اســـــمه «التوحيد »وهو الذى يريده أبو الطيب المتنبى فى قوله :

يترشفن من دمى رشـــفات   هن فيه أحلى من « التوحيد »

وقيل : ان سبب هذا اللقب يرجع الى أنه من طائفة المعتزلة ، وكان المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل التوحيد .

وذكر السبكى فى طبقات الشـــافعية أنه درس الفقه الشافعى على القـاضى أبى حامد المروزى ، وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى ، وأبى سعيد السيرافى وجعفر الخلدى ، أما اللغة فقـــد استمدها مشافهة من فى البادية .

ومن العلماء الذين التزم صحبتهم ومجالسهم ــ العالم أبو ســـعيد السيرافى الذى قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه ، ويلقبه أبو حيان التوحيدى فى كتاب «الاقناع والمؤانسة» بالامام كما يقول عنه : انه شيخ الدهر وفريد العصر ، العديم المثل .

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه عن النثر الفنى فى القرن الرابع للهجرة : ان التوحيدى كان من أنصار اخوان الصفا ، ولكنه كان يتستر اتقاء لسخط الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة كقوله :

الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء والأنبياء يطبون للمرضى حتى لايتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، أما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لايعتريهم مرض أصلا ٠

واتهم الكاتب اللغوى الأديب ابن فارس المتوفى فى القرن الرابع فى كتابه «الفريدة والخريدة» أبا حيان التوحيدى بالزندقة فقال: كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ٠

وهذا القول ينقصه الدليل،فأبو حيان التوحيدى كان متصوفا يذوب وجدا وعشقا ويسيل رقة وحبا ، وهو القائل «ان كل حى مصيره الى الفناء الا الخالق ، وقال : اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة آنفين بملابسة مايقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لابد من الشخوص اليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، انك تؤتى من تشاء ماتشاء» ٠

هذا وقد أحرق أبو حيان التوحيدى ، أكثر كتبه ، ويرجح المؤرخون أنه فعل ذلك لانه فقد الأمل فى المجد والغنى والشهرة ، كما فقد لذة الحياة عندما نيف على الثمانين ، ولعله كان مريضا معسرا أو فقيرا معدما ، فأحرق كتبه فى غمرة من النقمة واليأس والوساوس ٠

وما أعمق ايمان أبى حيان عندما يقول : حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أذناب الدنيا أن تدنس بشىء من مخالفة الله، حرام على عين نظرت الى مملكة الله أن تحدق الى غير الله ٠ حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تظمأ الى غير الله حرام على من لم يرد الخير الا من الله أن يجدد طمعا فى غير الله ،حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله ٠

ويظهر أن بعض التيارات الخفية هى التى أوحت الى بعض الناس باتهامه بالزندقة حتى قال أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه، زنادقة الاسلام ثلاثة ، ابن الراوندى وأبو حيان التوحيدى وأبو العلاء وقال : وأشرهم على الاسلام هو أبو حيان لانه مجمجم (١) ، ولقد وقف سيدنا الصاحب (٢) كافى الكفاة على بعض ما كان يداخله ويخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقتله فهرب واستتر ومات فى الاستتار ٠

وبينما يروى السبكى فى الطبقات هذا الكلام يقول ياقوت فى معجم

---

(١) كافر ٠
(٢) هو الصاحب بن عباد ٠

الأدباء : كان متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام ، معتزليا ، يسلك فى تصانيفه مسلك الجاحظ شيخ المتصوفة فيلسوف الأدباء ، أديب الفلاسفة ، امام البلغاء ، سخيف اللسان ، قليل الرضاء عند الاساءة اليه والاحسان ، فرد الدنيا الذى لانظير له ذكاء وفطنة وفصاحة » .

وقد توفى أبو حيان التوحيدى عام ٣٦٠ هـ وذهب السيوطى الى أنه توفى عام ٣٨٠ هـ وخلف وراءه مجموعة قيمة من الكتب منها كتاب الأدب والانشاء فى الصداقة والصديق وقد طبع بالمطبعة الشرقية عام ١٣٢٣ هـ وهو عبارة عن رسالتين الأولى عن الصداقة والصديق والآخرى عن العلوم وكتاب المقابسات ، وهو مائة مقابسة وثلاث فى مباحث العلوم ، وهذا الكتاب مفيدا جدا ، لعل الحريرى حذا حذوه كما يرجح ذلك حاجى خليفة فى كشف الظنون .

وقد ذكر المؤلف فى هذا الكتاب بعض ماوقع له من مفاوضات علماء عصره فى بغداد ، وكانوا يجتمعون فى دار أبى سليمان المنطقى ، فيتذاكرون فى موضوعات شتى ، وقد نشر فى الهند عام ١٣٠٥ هـ والمقتبس عام ١٣٣٠ هـ .

وتوجد من المقابسات نسخة فيها ١٠٦ مقابسات تتلوها رسالة الوصايا الذهبية لفيثاغورس وطبع طبع حجر فى الهند على يد ميرزا حسن الشيرازى فى الخامس من رمضان عام ١٣٠٦ وتتلوها الرسائل الآتية :

١ ـ الانصاف فى أسباب الخلاف لشاه ولى الله الدهلوى .

٢ ـ الأقوال المعربة عن أحوال الاشربة للشيخ حسن الجبرتى الحنفى

٣ ـ عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد .

٤ ـ كشف الزور والبهتان عن صنعة بنى سافان للملا عبد القيوم دنيتى كشمز انعام ناظر الاوقاف .

٥ ـ ايضاح الدلالات فى سماع الآلات للشيخ عبد الغنى النابلسى

وتتلو هذه ـ الرسائل الآتية :

٦ ـ القرب فى محبة العرب للحافظ عبد الرحيم الفراقى .

وكتب فى آخر الكتاب أنه طبع فى مدينة بمباى على يد مصححه أمين بن الامام حسن الحلوانى المدنى عام ١٣٠٣ هـ .

وفى فهرس دار الكتب المصرية ذكر أربع رسائل غير موجودة فى النسخة المذكورة ، وهى مقدمة أقوم المسالك لخير الدين باشا التونسى ، وبغية المرتاحين فى تصحيح الضاد ، لعلى بن غانم القدسى المتوفى عام ١٣٠٦ هجرية ثم كتاب السياسة الشرعية لابراهيم الحلبى ، والفلاكة والمفلوكون للدلجى .

كما نشر مرجيليوث المستشرق الانجليزى عام ١٩٠٥ فى لندن مناظرة ابن تونس القتاتى وأبى سعيد السيرافى فى رواية أبى حيان التوحيدى .

من القرن الرابع الهجرى :

المتنبي

شاعر عربى مشهور ، اسمه أبو الطيب أحمد بن الحسين ويعرف بأبى الطيب المتنبى ، ولد فى محلة تدعى كندة بالكوفة ، ولذلك نسبه بعض المؤرخين الى قبيلة كندة فى بلاد العرب ، فقالوا بدىء الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون أمرأ القيس فى البدء والمتنبي والرمادى الشاعر فى الختام وكانا متعاصرين ، وروى أن أبا فراس الحمدانى قال لابى الطيب فى مجلس سيف الدولة «ياداعى كندة» •

وكان والد المتنبى يعرف بعبدان السقاء ، أما والدته فيقال انهاكانت تنتسب الى قبيلة « همدان » وكانت امرأة صالحة تقية •

وجاء فى يتيمة الدهر للثعالبى أن والد المتنبى «سافر الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حاضرها ، ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه الى المكاتب ويردده فى القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه ، وضوامن النجح فيه ، حتى توفى أبوه ، وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع » •

وقد نشأ ابو الطيب محبا للعلم متعلقا به ، يحرص على قراءة ذخائر الكتب ودواوين من سبقه من الشعراء ، روى الخطيب عن التنوخى عن أبى الحسن محمد بن يحيى العلوى الزيدى انه قال : «وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم ، فأخبرنى وراق كان يجلس اليه يوما قال لى : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندى وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعى (سماه الوراق وأنسبه أبو الحسن) فى نحو ثلاثين ورقة ليبيعه • قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك فان كنت تريد حفظه فى هذه المدة فبعيد فقال له : ان كنت حفظته فمالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب قال فأخذت الكتاب من يده ، فاقبل يتلوه الى آخره ثم استلبه فجعله فى كمه وقام ، فعلق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لى : قال : فمنعناه منه، وقلنا له : انت شرطت على نفسك ، هذا للغلام ، فتركه عليه» •

وهكذا كان أبو الطيب ، قوى الحافظة دءوبا على القراءة والاطلاع عكوفا على دكاكين الوراقين وقد طاف بمدن الشام ، وقضى فترة غير قصيرة فى «بادية السماوة» حتى يتلقى اللغة من الاعراب فلا يعجم لسانه ويحيط بأسرارها ، ويصل الى أغوارها وقد ادعى بعض المؤرخين أن المتنبى ادعى فى هذه الفترة النبوة •

ويروى من ذلك أن أبا الطيب لما خرج الى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى حسنى ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى انه علوى الى أن اشتهر عليه بالشام الكذب فى الدعويين ، وحبس دهرا طويلا ، وأشرف على القتل ثم استتيب ، واشهد عليه بالتوبة واطلق .

ويروى كذلك أنه تنبأ فى بادية السماوة ونواحيها ، الى أن خرج عليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيديين فقاتله وأسره ، وشرد من اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل . وحبسه في السجن حبسا طويلا فاعتل وكاد يتلف حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه .

وقيل أن ابا الطيب كتب اليه وهو فى سجنه يقول :

فمـــا لك تقبـــل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشـــهود

وكن فارقا بين دعـــوى أردت ودعوى فعلت بشـأو بعيـــد

وقد جاء ذلك فى رواية رواها من يدعى معاذ بن اسماعيل ونقلها صاحب كتاب «الصبح المنبى عن حياة المتنبى» بيد أن بعض الشراح الثقات يعتقدون أن أبا الطيب قال ذلك الشعر لانهم كانوا قد وشوا به انه يريد أن يأخذ البلد .

ويقول الثعالبى فى يتيمة الدهر : « وبلغ من كبر نفسه ، بعد همته ان دعا الى بيعته قوما من رائشى نبله على الحداثة من سنه ، والغضاضة من عوده وحين كاد يتم له أمر دعوته نقل خبره الى والى البلدة ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده » .

ومعنى هذا أن السبب فى سجن المتنبى لم يكن ادعاءه النبوة وانما كان السبب بعد مطامعه ، وكبر آماله حتى ظن والى حمص به السوء ، وحسب أنه سينزعه من ملكه .

وهكذا كانت الروايات متناقضة فى أخبار ادعائه النبوة ، غير أن ابن الأثير وغيره ممن رووا أخبار المتنبئين ، لم يذكر أحد منهم دعوى أبى الطيب فى النبوة .

ويظهر أن مؤرخيه ادعوا نبوته لانه كان واسع الآمـــال ، كبير المطامع ، كما يبدو أن رواية التنبؤ كانت فرية تلصق بكثير من الناس مثلما كانت فرية الزندقة تلصق ببعض الكتاب والشعراء فى عهـــد العباسيين .

ويقول ابن جنى وهو من أكبر شراح ديوان المتنبى : ان الناس لقبوه بالمتنبى عندما قال :

ما مقـــامى بأرض نخـــلة الا كمقام « المسيح » بين اليهـــود

أنا ترب النـــدى ورب القـــوافى وسمام العدى وغيظ الحســـود

أنا فى أمـــة تداركهـــا اللـــ ـــه غريب كصـــالح فى ثمود

ونحن لانستبعد هذا الرأى ، فليس لدينا ما يثبت اثباتا قاطعا ان أبا الطيب ادعى النبوة ·

المهم أن أبا الطيب عندما خرج من سجنه هام على وجهه فى البلاد واتخذ الشعر وسيلة للاستجداء والوصول الى العطايا والهبات ، فمدح محمد بن زريق الطرسوسى بقصيدة مطلعها :

هذى برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

فوصله عليها بعشرة دراهم ، فقيل له ان شعره حسن ، فقال : ما أدرى ، أحسن هو أم قبيح ؛ ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم ، فكانت صلته عليها عشرين درهما ·

ومدح المتنبى على بن منصور الحاجب بقصيدة من روائع شعره فأجازه عليها بدينار ، ولذلك سميت القصيدة الدينارية ومطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

وما زال أبو الطيب يمدح هذا مرة وذاك مرة حتى اتصل بأبى العشائر والى انطاكية ، وقدمه ابو العشائر الى سيف الدولة الحمدانى عام ٣٣٧ هـ ، واثنى عليه ثناء مستطابا ، وعرفه منزلته فى الشعر والأدب ، ومنذ ذلك الوقت ازداد اتصال أبى الطيب بسيف الدولة ؛ وكانت مجالسه عامرة بالشعراء والأدباء ، وكان يسبغ عليهم الرفد والعطاء فأتوا اليه من كل صوب ، وتجمعوا حوله من كل حدب ، وفى ذلك يقول الثعالبى فى اليتيمة : « وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ، ويقال : انه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر . »

وقيل : ان المتنبى اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه لا ينشده الا وهو جالس ، ولا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ، فدخل سيف الدولة تحت اشتراطه ، وظل المتنبى يسوق روائع شعره الى سيف الدولة نحو تسع سنين ، وسيف الدولة لا يتوانى عن اجازته واغداق النعم عليه · حتى انه كان يعطيه كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجوارى والخلع والجوائز والاقطاعات · ولكن هذه النعمة لم تدم طويلا ، اذ ما لبث الحسد أن نما فى قلوب غيره من الشعراء فوشوا به لدى سيف الدولة ودبت القطيعة بين المتنبى وسيف الدولة بعد أن صاغ فيه درر قصائده ، وكان أول قصيدة أنشده اياها قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وآخر قصائده لسيف الدولة مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك فى اقدامك القسم ؟

وقد أنشده الأولى عام ٣٣٧ هـ والأخرى عام ٣٤٥ هـ ·

هذا وقد كان سيف الدولة مغرما بشعر أبى الطيب ، راغبا فى أن

يسمع كل حين قصيدة من شعره ، فأوغر ذلك صدور غيره من الشعراء ، ومما زاد من حسد الشعراء له أنه كان يتعـالى عليهم بشعره ، ويزهو بقريضه وفى هذا يقول :

وما الدهر الا من رواة قصائدى … اذا قلتشعرا أصبح الدهرمنشدا
وســار به من لا يسير مشمرا … وغنى بـه من لا يغنى مغـردا
اجزنى اذا أنشدت شعرا فانمـا … بشـعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فاننى … أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

ويتعرض أبو الطيب فى شعره الى حسد الشعراء له فيقول :

وللحسـاد عذر أن يشـحوا … على نظر اليـه وان يذوبـوا
فانى قـد وصلت الى مـكان … عليه تحسـد الحدق القـلوب

وكان المتنبى يرجو أن يقطعه سيف الدولة ولاية يتـولى أمرها بيد أن سيف الدولة لم يحقق له رغبته ، بل انه ترك الشـعراء يحسدونه ويوقعون فيه ، ويضربونه ، وهو لا يحرك ساكنا ، فعـول على فراقه وانحدر الى دمشق ثم الى الرملة ، واتصل بأميرها الحسن بن طغج فهدده جماعة من العلويين ، فغادر الرملة وقدم على كافور الاخشيدى •

ويروى بعضهم أن المتنبى رحل الى العراق بعد خدمته لسيف الدولة بن حمدان فى حلب ، فأقام فى البرية ، وسئل عن ذلك فقال : «ان بنى حمدان كدروا خاطرى ، فجئت اريحة » •

وقيل : انه كان بدمشق رجل يهودى من أهـل تدمر يعرف بابن ملك يقوم بأمور كافور الاخشيدى والى مصر فسأل المتنبى أن يمدحه فثقل عليه ذلك ولم يفعل ، فغضب اليهودى ، وجعل (كافور) يكتب فى طلب المتنبى ، فكتب اليه بذلك فقال المتنبى :

«لا أقصد العبد وان دخلت مصر ، فما قصدى الا ابن سيده» وذلك لأن كافور الاخشيدى كان عبدا خصيا ، وكان من موالى محمـد بن طغج الاخشيد ، ثم ذهب المتنبى بعد ذلك الى الرملة فأرسل اليه كافور رسولا يستقدمه ، ويظهر أن المتنبى استجاب لدعوة هذا الرسول طمعا فى أن يظفر من كافور بولاية • فولى وجهه شطر مصر ، واستهل مديحه بقصيدة مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا … وحسب المنـايا أن يكن أمانيا

وفى حمى كافور نال المتنبى مرة ثانية العطايا والهبـات ، اذ كان كافور محبا للعلماء والأدباء يغدق عليهم فى بذل وسخاء ، وممن كان فى صحبته أبو اسـحق ابراهيم بن عبـد الله النجيرمى صاحب الزجاج النحوى ، كما كان فى صحبته من الشعراء غير أبى الطيب - الشـاعر الناشىء - وغيره من الشعراء وكان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل دراهم فى صرر بأسـماء من أرسلت اليهم من العلماء والزهاد والفقراء ، فنعم

المتنبى فترة من الزمن بهذه النعم ، بيد أن آماله التى كانت تقلقه وتؤرقه حالت بينه وبين الاستمرار فى هذه الحياة ، فهو يطلب من كافور أن يمنحه احدى الولايات ، وكافور لا يحقق له هذه الأمنية . فيسوق له المتنبى قصيدته المعروفة التى مطلعها :

أمولاى هل فى الكأس فضل أناله فانى أغنى منذ حين وتشرب

ويفر من وجهه ، ولكنه قبل مغادرة مصر يسوق اليه أقذع قصائد الهجاء ، ويذكر أبو الطيب انه دخل مرة على كافور فوجده حافيا ، ورأى شقوقا فى قدميه فقال :

أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا

أمينا واخلافا وغدرا وخسة وجبنا أشخصا لحت لى أم مخازيا

وتعجبنى رجلاك فى النعل اننى رأيتك ذا نعل وان كنت حافيا

وقبل رحيله عن مصر بليلة واحدة قال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

عيد بأية حال عدت ياعيد بما مضى أم لامر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد

وفر المتنبى الى الكوفة ثم رحل الى بغداد وهناك ترفع عن مدح الوزير المهلبى فاغتاظ المهلبى لذلك وحرض عليه الشعراء الذين تباروا فى هجائه والسخرية منه والتهكم عليه ، فلم ينازلهم المتنبى ، بل اعرض سمعه عنهم ، وحدث أن راسله ابن العميد من أرجان فى ذلك الوقت ، فولى وجهه شطره ، ومدحه بقصائد شتى ، ثم اتصل بعضد الدولة بشيراز .

وكان الصاحب بن عباد طمع فى زيارة المتنبى أيضا فى «أصبهان» واعتباره كمن قصدهم من الولاة والكبراء ، فأرسل اليه يستقدمه ويطلب منه أن يمدحه بقصيدتين ووسط رجلا من وجوه التجار فقال أبو الطيب للوسيط : قل لابى اسحق والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب على أحد فى هذه البلاد من الحق ما أوجبته وأنا ان مدحتك تنكر لك الوزير ـ يعنى المهلبى ـ وتغير عليك لاننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال ، فأنا أجيبك الى ما التمست وما أريد منك مالا ، ولا عن شعرى عوضا » !

فحزت هذه الرسالة فى نفس الصاحب بن عباد مما دفعه الى التربص به . ثم حرض عليه النقاد ، وجعل لايذكره باسمه فى كتابه ، ولايتحدث عن شعره الا حين يريد التمثيل بالشعر القبيح كقوله فى بيت من قصيدة رثى بها أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من طعنوا فيه: هذه استعارة ، فقلت صدقت ولكنها

استعارة حداد فى عرس ! ولما أحب تقريظ المتوفاة ، والافصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من فى جنازتهـــا تجـــار   يكون وداعهم خفـــق النعـــال

واتصل المتنبى بعد ذلك بعضد الدولة فى شيراز فنجحت سفرته ، وربحت تجارته فى حضرته ، ووصل اليه من صلاته أكثر من مائتى ألف درهم ، واستطاب المتنبى الحيـــاة فى رحابه والتنعم بين أكنافه ، ثم استأذنه بالسفر لقضاء بعض الأمور فأذن له بعد أن نفحه بالمال الكثير ، وخلع عليه الخلع العظيمة ، وفى أثناء مسيره مع ابنه « محمد » وغلامه ، ومعه بغال موقرة بالذهب والفضة ، والنفائس ، والهدايا انقض عليه قوم من بنى ضبة وما زالوا يضربونه ضربا مبرحا حتى مات .

وجاء فى « الصبح المنبى » أن أناسا ذهبوا الى أبى نصر محمد الجبلى يسألونه عما صدر لأبى الطيب بعد مفارقته عضد الدولة ، وكيف كان قتله ، فأجابهم جوابا طويلا يقول فى أثنائه :

أما ما سألتم عنه من خبر مقتـــل أبى الطيب المتنبى ، فأنا أسوقه لكم وأشرحه شرحا بينا . اعلموا أن مسيره كان من واسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ثلثمائة وأربع وخمسين ، فقتل بضيعة تقرب من دير العاقول لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، والذى تولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بنى أسد يقال له فاتك بن أبى جهل ، وكان من قول فاتك لما قتله « قبحا لهذه اللحيه يا قذاف المحصنات » وذلك أن فاتكا هذا هو خال ضبة بن يزيد العينى الذى هجاه أبو الطيب فأقذع .

وبقتل المتنبى فقد الشعر العربى علما من أعلامه فى القرن الرابع الهجرى لا يزال شعره مضرب الامثال حتى وقتنا هذا .

ولقد اجتمعت فى شعر أبى الطيب صفات شتى جعلته شعرا ممتازا فى أغلبه : فهو رصين الديباجة ، قوى العبارات ، مبتدع للمعانى ، يدل شعره على نبوغ وعبقرية وعلم باللغة وأسرارها .

وقد حكى الحــــاتمى أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته فى الشعر ، بل ناظره فى اللغة أيضا ، وحكى أن أبا الطيب قال له : اللغة مسلمة لك فقـــال : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها ، وأعرفهم باشتقاقها ، والكلام على افانينها وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك » .

ولما وقع الجدال بين أبى الطيب وابن خالويه فى اللغة أمام سيف الدولة الحمدانى انتصر أبو الطيب على ابن خالويه مع ما كان يعرف عنه من طول باعه فى اللغة .

ومن يقرأ شعر المتنبى يجده صاحب ثقافة لغوية سليمة ، ولعـــل ذلك يرجع الى تلك الفترة التى قضاها فى بادية السماوة ، فأخذ أسرار اللغة عن الاعراب دون تزويق أو تنميق .

كمـــا أن من يقرأ ديوان المتنبى يدهشه ما اتصف به المتنبى من حكمة صادقة وفكر ثاقب ، ورأى مستنير .

تأمله وهو يقول فى فلسفة الحياة :

عش عزيزا أو مت وأنت كريـــم بين طعن القنـــا وخفق البنود
فرءوس الرمـــاح أذهب للغيـــــظ وأشفى لغل صدر الحقود

ثم تأمله وهو يقول فى فلسفة الأمم :

اعلى المـــالك ما يبنى على الاسل والطعن عنـــد محبيهن كالقبـــل

وانظر الى حكمته فى هذه الأبيات :

اذا غـــامرت فى شرف مـــروم فلا تقنـــع بما دون النجـــوم
فطعـــم الموت فى أمر حقـــير كطعم المـــوت فى أمر عظيـــم
يرى الجبنـــاء أن العجز عقـــل وتلك خديعة الطبـــع اللئيـــم
وكل شـــجاعة فى المـــرء تغنى ولا مثـــل الشجاعة فى الحكيم

واقرأ تلك الأبيات التى جرت مجرى الامثال وتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وانحدرت من ثغور الشيوخ الى ثغور الشباب كقوله :

واذا كانت النفـــوس كبـــارا تعبت فى مرادهـــا الاجســـام

وقوله :

ان السلاح جميـــع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبـــع

وقوله :

ولم أر فى عيوب النـــاس شيئا كنقص القـــادرين على التـــمام

وقوله :

وكل امرىء يولى الجميـــل محبب وكل مـــكان ينبت العـــز طيب

وقوله :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخـــافة فقر فالذى فعل الفقر

وأوتى المتنبى موهبة صافية في الوصف ســـواء أكان الوصف متصلا بوصف الطبيعة والمناظر الخلابة أم بوصف المعارك الحربية ووقائع الفروسية والقتال .

فقال فى وصف شعب بوان الذى مر به فى أثنـــاء سيره لعضد الدولة فى شيراز :

غدونا تنفض الاغصـــان فيهـــا على أعرافهـــا مثـــل الجمان

فسرت وقــــد حجبن الحر عني   وجئن من الضياء بمـــا كفاني
وألقى الشرق منهـــا في ثيابي   دنانـــيرا تفر من البنـــان
لهـــا ثمر تشـــير اليك منه   بأشربة وقفـــن بـــلا أوان
وأمواه تصـــل بهـــا حصاها   صليل الحلي في أيدي الغـــواني

ولكن المتنبي في وصف الطبيعة مقل ، ولا نكاد نعثر في ديوانه الا على بضعة أبيات في هـــذا المضمار فلم تكن تستهويه الأنهار والبحار ، والقفار والرياض قدر ما تستهويه المعارك الحربية ومواقع القتال ، وقد بلغ المتنبي في وصف الوقائع الذروة ، وقد دفعته حروب سيف الدولة وانتصاراته الباهرة الى التغني بهذه المفاخر في شعره ، فقال يخاطب سيف الدولة :

تمر بك الأبطـــال كلمى هزيمة   ووجهك وضـــاح وثغرك باسم
تجـــاوزت مقدار الشجاعة والنهى   الى قول قـــوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة   تموت الخوافي تحتهـــا والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار الى اللبـــات والنصر قادم

ويلاحظ الباحث في ديوان المتنبي كثرة زهوه وفخره فهو يقول :

لا بقـــومي شرفت بل شرفوا بي   وبنفسي فـــخرت لا بجـــدودي
وبهم فخر كل من نطق الضـــا   د وعوذ الجـــاني وغوث الطريد

وهو يقول في موضع آخر :

أي محـــل ارتقي   أي عظـــيم اتقي
وكـــل ما خلق اللـ   ـــه وما لم يخلـــق
محتـــقر في همتي   كشـــعرة في مفرقي

بل أنه يستصغر شأن الناس ، ويقلل مقدارهم في عينه فيقول :

ودهر ناســـه ناس صـــغار   وان كانت لهم جثث ضـــخام
وما أنا منهـــم بالعيش فيهـــم   ولكن معـــدن الذهب الرغـــام

ونظم أبو الطيب بعض الشعر في الغزل بيد أنه غزل صناعي لايدل على حب متغلغل في القلب أو عشق متيم به الفـــؤاد ، واشتهر المتنبي بغزله في الأعرابيات كقوله :

من الجـــآذر في زي الاعاريب   حمر الحلي والمطـــايا والجلاليب

ومما نلاحظه على شعر المتنبي أن بعض معانيه خافية لما في شعره من التقديم والتأخير والمبالغة والتهويل ، والغرابة في التعبير أحيـــانا ،

واستخدام بعض الألفاظ القديمة بيد أن هناك كثيرا من المشابه فى معانيه بينه وبين أرسطوطاليس فأرسطو يقول :

(الأشكال » لاحقه بأشكالها كما أن الاضداد مباينة لأضدادها » فيقول المتنبى :

وشــــبه الشيء منجذب اليـــــه　　وأشبهنا بدنيـــانا الطغـــام

ويقول أرسطو « على قدر بصيرة العقل يرى الانســـان الأشياء ، فالسالم العقل يرى الاشياء على قدر حقائقهـــا ، والنفس اللئيمة ترى الأشياء بطبعها ، ويقول المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض　　يجد مرا به المـــاء الزلالا

ويقول ارسطو : على قدر الهمم تكون الهموم ·

ويقول المتنبى :

أفاضل النـاس أغراض لذا الزمن　　يخلو من الهم اخـلاهم من الفطن

ويقول أرسطو : كره ما لا بد من كونه ــ عجز فى صحة العقل ·

ويقول المتنبى :

نحن بنو الموتى فما بالنـا　　نعـــاف ما لا بد من شربه

ويقول ارسطو : النفس الذليلة لاتجد ألم الهوان ، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام ·

ويقول المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه　　ما لجـــرح بميت ايـــلام

وزعم قـوم أنه كان يعرف اليونانية وأنه أخذ كلماته الجوامع من ارسطوطاليس ، وزعم آخرون أنه لم يعرف اليونانيـة وأن ما توافق من أفكاره مع ارسطو طاليس انما كان توارد خواطر ·

وعندى أنه سواء أصح القـول الأول أم الآخر فان شعره يدل على عبقرية ونبوغ ·

قال ابن رشيق القيروانى فى كتاب العمدة وهــــو يتكلم عن كبار الشعراء : « ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس » وقال ضياء الدين ابن الاثير فى كتاب « الوشى المرقوم » : « وكنت قد سافرت الى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة ورأيت الناس منكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك فقلت : ان كان لان أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس الحسن بن هانىء ، فلم يذكروا لى فى هذا شـيئا ، ثم انى فاوضت عبد الرحيم بن على البيسانى (القاضى الفاضل) رحمه الله فى هذا فقال لى : ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال » ·

وقال ياقوت الحموى : « وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ، ومن أتى بعده مثل أبى نواس وأبى تمـــام ، وكان المرتضى يبغض المتنبى ويتعصب عليه ، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى ، وجعـــل يتتبع عيوبه ، فقـــال المعرى : لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قوله « لك يا منازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا ، فغضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله ، وأخرج من مجلسه ، وقال لمن بحضرته: أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذا البيت من قصيدة له ، فان للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكرها ؟ فقيل : النقيب السيد أعرف ، فقال أراد قوله فى هذه القصيدة :

واذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

وتدلنا هذه الرواية على دلائل كثيرة منها : ان أبا العلاء المعرى وهو شاعر حكيم لا يشك فى رأيه ، ولا يرتاب فى حكمه كان من أشد المعجبين بالمتنبى ، وهذا مما يرفع قدره ، ويعلى شأنه ، ومنهـــا أن المرتضى كان يحفظ شعر المتنبى ويعرف أبيات قصيدته بيتا بيتا وهـــذا يدل من جهة أخرى على ذيوع شعر المتنبى وعلو قدره بين معاصريه .

ويقول أبو الفتح بن جنى : « وان كان فى بعض ألفاظه تعسف عن القصد فى صناعة الاعراب ، من التمسك بأهداب شاذة أو حمل على نادر فعن غير جهل كان منه ، ولا قصور عن اختيـــار الوجه الأعرف له ، ومن هنا تشبث قوم لا دراية لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه اذ لم يكن لهم خبرة بدخيلة أمره . وحقا أقول : لقد شاهدته على خلق قلما تكامل الا لعالم موفق ، وأما اختراعه للمعانى وتغلغله فيها ، واستيفاؤه اياها فما لا يدفعه الا ضد ، ولا يستحسن معاندته الا ند » .

وقال ابن شرف القيروانى المتوفى عام ٤٦٠ هـ : « وأما المتنبى فقد شغلت به الالسن ، وسهرت فى اشعاره الاعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والآخذ لذكره ، والغائص فى بحره ، والمفتش فى قعره عن جماله ودره» .

وقال الشريف الرضى : « أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤزر وأما أبو الطيب المتنبى فقائد عسكر » .

وصفوة القول أن المتنبى كان عمـــلاقا من عمالقة الشعر فى الأدب العربى ، وكان يمثل ثقافة واسعة متعددة الألوان تجمــــع بين الثقافة القديمة والجديدة ، وتمثلت فى شعره تيارات مختلفة من المعارف ، وكان يصطنع الأسلوب الفلسفى فى شعره ، والعبارة الصوفية والافكار بعضها عربى والآخر أجنبى وشاراتها ارضاء للمتصوفة وأصحاب التشيع ، كما كان يستخدم الرمزية للدلالة على أفكاره لارضاء هؤلاء المتصوفة ، ويطيل فى أفكاره اطالة ملحوظة تدل على براعته وتمكنه من التحكم فى صروف البيان .

وقد جمـــع ديوان المتنبى ونشر أكثر من مرة ، ومن شروحه التى بقيت شرح ابن جنى المتوفى عام٣٩٢هـ فى ثلاثة مجلدات وقد ذكره صاحب

كشف الظنون ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة بطرسبرج ، وأخرى فى مكتبة الاسكوريال ، وشرح ديوان المتنبى ابراهيم الاقليلى (المتوفى عام ٤٤١ هـ) ومنه نسخة فى مكتبة برلين ، وشرحه كذلك أبو العلاء المعرى المتوفى عام (٤٤٩ هـ) ومن شرحه نسخة فى مكتبة المتحف البريطانى ، وأخرى فى مكتبة بطرسبرج ، وشرحه الواحدى المتوفى عام (٤٦٨ هـ) وطبع فى بمباى بالهند عام ١٢٨١ هـ وفى أوربا عام ١٨٦١ م ، وشرحه التبريزى (المتوفى عام ٥٠٢ هـ) ومنه نسخة فى باريس ، وشرحه العكبرى (المتوفى عام ٦١٦ هـ) وطبع فى بولاق بمصر عام (١٨٦٠ م) . وهناك نسخ أخرى فى مكتبات أوربا وليس عليها اسم الشارح ، ونشر بطرس البستانى ديوانه وعلق حواشيه وتم طبعه عام ١٨٦٠م ، ولليازجى شرح لديوان المتنبى نشر فى بيروت أكثر من مرة ، كما نشر سليم ابراهيم الديوان ووقف عليه أحد العلماء للتدقيق فعلق حواشيه وفسر كلماته اللغوية ونشره عام (١٩٠٠ م) ، ونشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٤ م (١٣٦٣ هـ) ديوان المتنبى معتمدة على أقدم النسخ وأصحها ، وتمتاز هذه الطبعة بزيادات فى الشعر ومقدمات للقصائد كتبها المتنبى نفسه ، وتعليقات قيمة للشاعر نفسه ، وقد صححها وقارن نسخها ، وجمع تعليقاتها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

وعنى غرانجريه بترجمة شعره الى الفرنسية ، كما عنى ديترش وهامر ، وجونبول بالكتابة عنه ونقد شعره ، وعنى جونبول بترجمة بعض شعره الى اللاتينية عام ١٨٤٠ ، وألف المستشرق الفرنسى بلاشير كتابا عنه كما كتب مادة « للمتنبى فى دائرة المعارف الاسلامية » .

ابن مسكويه
مفكر اسلامي جليل

حفل التاريخ الاسلامي بعدد كبير من المفكرين الذين ضربوا بسهم صائب في ميـــدان المعرفة ، ورســموا الطريق الى السعادة الدنيوية والأخروية ، فكانوا بحق من أبرز علماء الأخلاق فى العالم أجمع وأصبحت أفكارهم مرجعا لأهل الفكر فى الغرب ينهلون منمواردها العذبة ، ويعبون من غديرها السلسبيل ، ومن هؤلاء المفكرين الاســلاميين ــ العالم الجليل ابن مسكويه الذى عاش فى أواخر القرن الرابــع الهجرى وأوائل القرن الخامس ، أما سنة ولادته فمختلف فيها ، وسنة وفاته ٤٢١ هـ فى أكثر المراجع ٠

وترجع أهمية ابن مسكويه الى أنه عنى بتدوين التاريخ الاسلامي ، وحاولَ الا تفوته شاردة أو واردة فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فكتب « تجارب الأمم » وهو سفر ضخم فى ستة أجزاء استهله بتاريخ الخليقة وانتهى فيه الى عام ٣٦٩ هـ ٠

ويعد كتاب تجارب الأمم مصدرا أساســـيا لتاريخ بنى بويه فى العصر العباسى اذ تتبع فيه تاريخ البويهيين فى دقة واخلاص ــ ولميكتف بالسرد والقصة انما غاص الى الاعماق ٠ فانتقدهم فى صراحة لا تخلو من شدة ، وذكر مواطن المؤاخذة من خوف أو تردد ، ولم ينس فى أثناء ذلك كله أن يشيد بمواضع الفخر ومواطن الاعجـــاب ٠ وقد حكم عقله فى التاريخ ، ومن هنا كان ابن مسكويه يختلف عن ابن جرير الطبرى فى كتابة أخبار الرسل والملوك اذ كان يكتفى بالرواية دون النقد والتعليل ٠

بيد ان ابن مسكويه نهج نهج ابن جرير الطبرى فى ذكر الحوادث على حسب السنين ولم يستطـــع التخلص من هـــذه اللازمة فى عرضه التاريخى ٠

وعندما تعرض ابن مسكويه لسيرة النبى عليه الســـلام والخلفاء الراشدين كان يقف وقفات جليلة تكشف عن مواطن العـــزة والكرامة ، ويعرض صور البطولة فى اطار خلاب جذاب ، يستهوى النفوس ويستحوذ على القلوب ، ولا يتحرج من الاعتراف بأخطاء الحكام فى الدولة الاموية مما أدى الى سقوطها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها ٠

ولم تأت أهمية ابن مســكويه من جهـــده فى تدوين التـــاريخ الاسلامي فحسب انما أتت كذلك من كونه عالما أخلاقيا من الطراز الأول،

آمن بفكرة الفضيلة ايمانا قويا فدعا اليها وأشربها وحرص عليها فى كل ما يكتب ويقول ٠

ولقد مكنته عقيدته الدينية التى تدعـــو فى سداها ولحمتها الى الفضيلة من الصمود فى الدعوة اليها والعمـــل على نشرها بكل طريقة مستطاعة ٠

والفضيلة فى نظره مقترنة باللذة والسرور ، فالرجل الفاضل يجد لذة لاتعدلها لذة ، ويساوره سرور لا يساويه سرور عندما يفعل الفضيلة٠ مثله فى ذلك مثل الفنان الموهوب الذى يعزف على قيثارة فيجد فى النغم الحلو ، واللحن الطروب لذته الكبرى ، أو مثله كالبناء الماهر الذى يجد فى الصرح الشامخ ، والبنيان الســامق عقب الفراغ منه سروره الأكبر وسعادته القصوى ، فالرجل الفاضل لا يفعل الفضيلة تحت تأثير لون من الضغط أو ضرب من الاكراه ، أو نوع من الحتمية أو الالزام ، انما يفعلها وهو يشعر بنوع من الحب نحوها ٠

واللذة متصلة كل الاتصال بالفضيلة ، ولا يمكن أن تنفصل عنها بأية حال ، وفى هذا يقول ابن مسكويه : « وليست تظهر لذة الســعيد الا بابراز فضائله ، واظهار حكمته ووضع كفايته فى موضعها ، وكذلك البناء الحاذق والصانع الماهر ، والموسيقى المحسن » ٠

واذا كان ابن مســكويه يعتبر الفضيلة لونا من اللذة أو هى اللذة بعينها ، فانه لا يغلق الباب أمام هؤلاء الذين يرنون اليها ويطمعون فيها، ويحرصون على الاستئثار بها فيقول أن الفضيلة مكتسبة بمعنى أن الناس يستطيعون أن يكونوا فضلاء ، ويستهل القضية من بدايتها فيقول : ان نفس الصبى لا تولد على صورة محدودة أو هيــئة معينة انما هى قابلة للتشكل بحسب ما يحيط بها من الظروف الخارجية وبحسب ما تروض عليه من العادات ، فهى فى ذلك مثل قطعة الشـــمع التى تتشكل كيفما يرد صاحبها ، أو قطعة الصلصال التى يكيفها المثال كيفما هوى وشاء ٠ ولذلك لا بد من العناية بنفس الصبى وعدم تركها نهبا للجوار الفاسد أو الوسط الموبوء ٠ فتتسرب اليها الرذيلة عن طريق المخالطة أو المجالسة والمؤانسة ٠

وهذا المعنى نفسه هو الذى أشار اليه الرسول الكريم فى مجاورة الجليس الصالح وجليس السوء ٠ فالأول كحامل المسـك والآخر كنافخ الكير اما يحرق ثيابك أو تصيبك منه ريح خبيثة ٠ وليس من شك فى أن الأذى الذى يصيب الصبى من نافخ الكير هو الرذيلة فى مختلف صورها وشتى مظاهرها وأن المسك الذى يصيب الصبى هو الفضيلة بعينها ٠

وأول شرط من شروط الفضيلة هو العلم بالشريعة فى أول عهــد الانسان منذ طفولته لأن الطفل فى هـــذه الفترة من العمر يكون أكثر استجابة للمعارف والعلوم وقديما قال الحكمـــاء ، « التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر » وفى هذا الباب يقـــول ابن مسكويه فى تهذيب الاخلاق : « الشريعة هى التى تقوم الاحداث وتعودهم الافعال المرضية ،

وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل ، والبلوغ الى السعادة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم » .

ويرى ابن مسكويه أن الهدف الأسمى الذى يجب أن يسعى اليه الانسان الناضج العاقل هو السعادة القصوى اذ أنها الغاية التى لا غاية بعدها ، وكل فعل يقرب منها فهو خير ، وكل فعل يبعد عنها فهو شر . والسعادة القصوى هى الغرض الأخير والكمال الأقصى على حد تعبيره . وهى تؤثر لذاتها لا لغيرها ، وهى خير دائم مطلق لا يتعلق بشخص معين ولا بمكان معين أو زمان معين ، انما هى واحدة فى كل زمان ومكان . وهى الهية وقدسية ، بيد أنها فى طاقة البشر يستطيعون الوصول اليها والاستمتاع بها ، ويمكن الوصول الى هذه السعادة القصوى عن طريق نبذ اللذات الحسية الخسيسة ، ويكون ذلك على سبيل التدرج لا على سبيل الاندفاع والانطلاق والنظر فى أمور هذا الكون السفلى والعلوى والحقائق الأزلية فقال تعالى فى كتابه العزيز فى سورة يونس .

« قل انظروا ماذا فى السموات والارض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» وقال تعالى جل ثناؤه فى سورة البقرة :

ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » كما قال كذلك جل وعلا فى سورة آل عمران :

«ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

فالسعادة القصوى أن يحقق الانسان النظر الى تلك الحقائق العلوية والسفلية ويستخدم عقله فى استجلاء كنه هذه الحياة وتحديد موقفه منها ، وفى ذلك يقول ابن مسكويه « السعيد التام هو الذى توافر حظه من الحكمة ، فهو يقيم بروحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الالهى ، ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها ، وقلة عوائقه عنها ، ولذلك يكون أبدا خاليا من الآلام والحسرات .. ويكون مسرورا أبدا بذاته مغتبطا بحاله ، وبما يحصل له ، وانما من فيض نور الازل ، فليس يسر الا بتلك الأحوال ، ولا يغتبط الا بتلك المحاسن ، ولا يهش الا لاظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه وقاربه وأحب الاقتباس منه ، وهذه المرتبة ان وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات وأقصاها » .

وكان ابن مسكويه ينصح بمقاومة الغضب مقتفيا أثر الرسول الكريم حين قال : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » لأن الغضب يدفع الانسان الى ما لا تحمد عقباه ، والحلم هو الفضيلة المطلوبة وهى صحة النفس واستقامتها وأمراض النفس ثمانية وهى التهور والجبن والشره والجمود والسفه والبله والجور والمهانة ،

وهي أطراف مضادة للفضـــائل الكبرى الأربع وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ٠

هذه لمحات من آراء هذا المفكر الاسلامى الجليل ابن مسكويه الذى كانت آراؤه مرجعا لكثير من علماء الاخلاق فى أوربا وطبعت كتبه طبعات مختلفة فى الشرق والغرب ، فطبع كتاب تجارب الأمم فى ليدن عام ١٨٦٩ وعام ١٩٠٩ كما طبع فى مطبعة «التمدن» بالقاهرة منذ سنوات أما كتابه تهذيب الأخلاق فطبع فى الهند عام ١٢٧١ هـ وطبع فى مطبعة «التمدن» عام ١٢٩٨ هـ وعام ١٢٩٩ هـ وعام ١٣١٧ هـ كمـــا كتب الشيخ عبد الكريم سليمان مقدمة لهــذا الكتاب ونشره باسم تهذيب الأخلاق لابن مسكويه فى التربية وظهر عام ١٩٠٥ م

أما كتاب الفوز الأصغر فهـو كتاب فلسفى لابن مسكويه قال فيه الشيخ طاهر الجزائرى : « بناه ابن مسكويه على أصول الفلسفة الالهية وانتصر فيه للدين » وطبع فى بيروت عام ١٣١٩ هـ وعام ١٣٢٥ هـ ٠

هذا وقد تأثر ابن مسكويه فى آرائه بكثير من المؤلفين الاسلاميين يذكر منهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه الاقناع والمؤانسة ، والكندى ، والفارابى الذى كتب عنــه مخطوطا سماه « من كلام أبى نصر الفارابى » وقد جمع فيه كثيرا من الحكم والاقوال ٠

وكان الأستاذ الامام محمد عبده يدرس كتابه تهــذيب الأخلاق وتطهير الاعراق لطلبة الازهر ، كما تقرر تدريسه فى مطلع القرن العشرين فى مدرسة المعلمين الناصرية ٠

أسـامة بن منقذ

أسامه بن منقذ فارس عربى ، يمثل الفروسية العربية فى أثنـاء الحروب الصليبية ولد فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ أى يوليو عام ١٠٩٥ وتوفى فى ٢٣ من رمضان ٥٨٤ هـ ، نوفمبر ١١٨٨ م ، لزم عماد الدين زنكى فى حروبه ؛ وعمل فى البلاط الفاطمى فى عهدالخليفتين الحافظ والظافر ، واشترك مع نور الدين فى حملاته على الفرنج وعاش مع بنى أرتق فى حصن كيفا فى ديار بكر ، ثم عاش مع البطل صلاح الدين الايوبى فى دمشق وكان وقت ذاك فى التسعين من عمره .

وكان والد أسامة رجلا تقيا يحفظ سورا من القرآن ، ويصرف وقته فى تلاوته واستنباط مواضع الحكمة فيه .

وحكى أسامة أنه كان مع والده ذات مرة وهو واقف فى قاعة داره ، واذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القنـاطر الذى فى الدار ، فوقف يبصرها ، فحمل سلما كان فى جانب الدار ، وأسنده تحت الحية وصعد اليها وكان أبوه يراه فلا ينهاه ، فأخرج أسامةسكينا صغيرا من وسطه وطرحه على رقبة الحية وهى نائمة وبين وجهه وبينها دون الذراع ، وجعل يحز رأسها ، وما زال يحزه حتى قطعه ، وألقى الحية داخل الدار وهى ميتة .

كما يحكى أسامة أنه خرج مع والده لقتال أسد على ظهر أحد الجسور فلما وصلا الى الجسر حمل عليهما أسد من الاجمة التى كان فيها ، وشرع يحمل على الخيـل ، ثم وقف وقد ربض على جرف النهر يتخبط بصدره على الارض ويهدر ، فحمل عليه أسامة فصاح عليه والده ، لا تستقبله يا مجنـون فيأخذك . ولكن أسامة طعنه ، فما تحرك الاسـد مكانه ، وكانت هذه المرة هى المرة الاخيرة التى نهى فيها والد أسـامه ابنه عن القتال .

وهذه الحكايات تدل دلالة قاطعة على أن أسامة نشأ نشأة كلهـا شجاعة وبسالة واقدام مما كان له أبعد الاثر فى حياته فيما بعد .

وقد تتلمذ أسامة على أبى عبد الله الطليطلى أحد علمـاء النحو المشهورين فى هذا الوقت ، فدرس عليه اللغة عشر سنوات كاملة ويقول أسامه : انه دخل عليه يوما ليقرأ عليه فوجد بين يديه من كتب النحوكتاب سيبويه ، وكتاب الخصائص لابن جنى وكتاب الايضاح لابى على الفارسى ، وكتاب اللمع وكتاب الجمل فقال له : يا شيخ عبد الله قرأت هـذه الكتب كلها ؟ قال : قرأتها .. لا والله الا كتبتها فى اللوح وحفظتها ، تريدتدرى؟

آخذ جزءا وأفتحه وأقرأ الصفحه جمعاء حفظا ، حتى آتى على تلك الاجزاء جميعا ، فرأى أسامة منه أمرا عظيما ما هو فى طاقة البشر .

وعاش أسامة فترة من حياته فى مدينة (شيراز) وكان عمه أبو العساكر سلطان حاكما لشيراز فوكل اليه بعض الاعمال التى تتطلب الشجاعة والبسالة . وقد حفظ لنا شمس الدين أبو عبد الله الذهبى فى كتابه « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » المعارك التى حضرها أسامه ومنها المعارك التى اشترك فيها عماد الدين مع الخليفة المسترشد بالله عام ٥٢٧ هـ ، وكان عماد الدين فى هذه المعارك يناصر السلطان سنجر ابن ملكشاه الذى كان يعادى السلطان سعودا ، وكان السلطان سنجر يحرض عماد الدين على غزو بغداد والاستيلاء على العراق ، وكان أسامةفى عسكر عماد الدين ووصف لنا وصفا شائقا هذه المعارك التى خاضها فى شجاعه واقدام ، وظل أسامه يحارب فى صفوف عماد الدين حتى اضطر الى الرجوع الى شيراز للدفاع عنها ضد جموع متحالفة من الفرنج والروم واستمر القتال بين الفريقين حتى وضعت الحرب أوزارها ، وتم الاتفاق بين جيوش ريموند صاحب انطاكيه وجيوش جوسلين الثانى حاكم الرها وغيرهما من ملوك الروم والفرنج ـ وبين حاكم شيراز على أن ترحل جيوش الحلفاء عن شيراز ، وبانتهاء الحرب وعقد الصلح أهدى بنو منقذ اليهم فيما أهدوه بعض الخيول .

ورحل أسامة بن منقذ بعد ذلك الى دمشق حيث اتصل بالوزير «معين الدين أنو » ولكن اتصاله بهذا الوزير لم يدم طويلا اذ سرعان ما ظهر لمعين الدين منافس خطير هو مؤيد الدولة أبو الفوارس المسيب بن على بن الحسين المعروف بابن الصوفى وكان ينازع معين الدين فى سلطته ونفوذه ، ويدبر المؤامرات للتخلص منه ، ففكر معين الدين فى استخدام رجل من أهل دمشق يعينه على هذا المنافس ويكون أشد تفانيا فى خدمته ، فقرب اليه « طحان الياروقى » فأثر هذا العمل فى نفس أسامة تأثيرا كبيرا فعول على ترك دمشق ، وأزمع الرحيل الى مصر ، وفى رحيله يقول أسامة : « ثم جرت أسباب أوجبت مسيرى الى مصر ، فضاع من حوائج دارى وسلاحى ما لم أقدر على حمله وفرطت فى أملاكى ، ما كان نكبة أخرى كل ذلك والامير معين الدين رحمه الله ، محسن مجمل ؛ كثير التأسف على مفارقتى مقر بالعجز عن أمرى ، حتى أنه أنفذ الى كاتبه الحاجب « محمود المسترشدى » رحمه الله قال : « والله لو أن نصف الناس معى لضربت بهم النصف الآخر . ولو أن معى ثلثهم لضربت بهم الثلثين وما فارقتك ، ولكن الناس كلهم قد تمالئوا على وما لى بهم طاقة وحيث كنت فالذى بيننا من المودة على أحسن حال » .

وكتب أسامة الى معين الدين يقول :

معين الدين كم لك طوق من	بجيدى مثل أطواق الحمام
يعبدنى لك الاحسان طوعا	وفى الاحسان رق للكرام
فصار الى مودتك انتسابى	وان كنت العظامى العصامى

ولكن يظهر أن معين الدولة وأسامة بن منقـــذ لم يكونا يظهران ما يبطنان ، اذ أن معين الدولة استخـــدم الياروقى بدلا من أسامة وأرسل أسامة بعد ذلك لمعين الدولة قصيدة كلها عتاب ولوم تستشف منها ضجر معين الدولة من أسامة وسأمه ومله من عشرته ٠

ووصل أسامة بن منقذ الى مصر فى ٢ من جمادى الآخرة عام ٥٣٩ (نوفمبر عام ١١٤٤)وكان معه والدته وزوجه وأخوه نجم الدولة أبو عبد الله محمد وعدد كبير من مماليكه وحشمه وقد قابله بالترحاب الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ) (١١٣٠ ـ ١١٤٩) الذى أنزله بدار الافضل وكانت تسمى دار الملك أو الدار السلطانية ، وشغل أسامة فى مصر بالصيد وأعجب الخليفة بخبرته فيه حتى قال عنه : « وأى شىء شغل هذا الا القتال والصيد » وأعطاه الحافظ لدين الله ساعة وصوله بعض الثيـــاب ومائة دينار ، أما الدار التى منحه اياها فقد كانت فى غاية الحسن ، « وفيهـا بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس » ٠

وقد شهد أسامة بن منقذ الاحداث الخطيرة التى وقعت بمصر من اضطراب الامن والصراع بين الوزراء ويقول بعض المؤرخين : ان أسامة هو الذى أشار بقتل ابن السلام الذى خرج على الخليفة الظاهر ٠

ثم عاد أسامة الى دمشق مرة أخرى ومنها الى ديار بكر وقـد وصف الحياة الاجتماعية والسياسية فى هذه المناطق وصفا شائقا رائعا ، واشترك مع نور الدين فى حروبه ضد الصليبيين كما اشترك مع صـــلاح الدين الايوبى فى بعض غزواته ، واستدعاه صلاح الدين من حصن كيفا وأسامة فى التسعين من عمره وأسكنه دارا فى دمشق ، ومنحه صلاح الدين اقطاعا من الارض فعادت الحياة تدب فى أوصال الشيخ ونعم بشىء من الرفاهية والسعادة ، وأخذ يلقى المحاضرات فى البديع ويدرس فى المدرسة الحنفية فى دمشق ، كمـــا أخذ يدون ذكرياته دون تعمل أو تصنع فى مذكراته المعروفة فى التاريخ بكتاب الاعتبار وكتب فى صدرها هذه الابيات :

اذا كتبت فخطى جد مضطرب ۝ كخط مرتعش الكفين مرتعـــد

فأعجب لضعف يد عن حملها قلما ۝ من بعد حطم القنا فى لبة الأسد

اذا مشيت وفى كفى العصا ثقلت ۝ رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجلد

وغرضه من كتابة هذا الكتاب كما بينه هو « أن ركوب أخطـــار الحروب لا ينقص أجل المكتوب ، فأننى رأيت الدهر يوضح المشـــجاع العاقل والجبان الجاهل أن العمر موقت مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر » وأن الله مقدر الاقدار ، وموقت الآجال والاعمال » وانه يجب ألا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر أو يؤخره شدة الحذر » ٠

ويرجع الفضل فى اكتشاف هذا الكتاب الى المستشرق الفـــرنسى هارنوج دبروبنورج (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨) الذى عثر عليه فى أسـبانيا بين مخطوطات مكتبة الاسكوريال ، وفى عام ١٨٨٦ نشر هذا المستشرق الكتاب

فى ليدن ، وفى عام ١٨٩٤ نشر ترجمة فرنسية له وفى عام ١٩٠٥ نشر المستشرق ثومان هذا الكتاب بالالمانية وترجمه المستشرق سـالير عام ١٩٢٢ الى الروسية ، كما قامت جامعة كولومبيا بنشرترجمته الانجليزية عام ١٩٢٩ وفى عام ١٩٣٠ نشره فيليب حتى باللغة العربية فى الولايات المتحدة وطبع بمطبعة جامعة برنستون .

ولأسامة غير كتاب الاعتبار كتب أخرى منهاديوانه الذى يضم باقة من أشعاره وكتاب المنازل والاديار ، وكتاب العصا وقد ذكر فيه أسامة كل ما قيل فى العصا منذ عهد موسى عليه السلام ، وسليمان بن داود حتى عصره ، وكتاب تاريخ القلاع والحصون ؛ وأخبار النسـاء والنوم والاحلام ، والشيب والشباب ، والتأسى والتسلى وأكثر هذهالكتب مخطوط حتى الآن وفى حاجة الى أن ينشر ويخرج الى النور .

ابن الجوزى

هذا أديب مؤرخ عالم مصنف . ولد فى بداية القرن السادس للهجرة أو فى عام ٥٠٨ هـ على وجه التحديد ، ولد فى « مشرعة الجوز » من أعمال بغداد ولذلك سمى بابن الجوزى وألف عشرات الكتب فى شتى فنون الادب وعلوم الدين ومن مؤلفاته أسماء الضعفاء والواضعين من رجال الاحاديث فى علم الاحاديث وكتاب نزهة الاعين والنواظر فى علم الوجوه والنظائر ، ولقط المنافع فى الضرب والفراسة عند العرب ، وكتاب زاد المسير فى علم التفسير ، وكتاب فضائل القدس ؛ وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب الياقوتة فى الوعظ والارشاد ، وكتاب مناقب أحمد ابن حنبل ، وكتاب سيولة العقل على الهدى فى الاخبار ، وكتاب الذهب المسبوك فى سير الملوك ، وكتاب المقيم المقعد فى دقائق العربية وكتاب تلقيح مفهوم أهل الآثار فى مختصر السير والأخبار ، وكتاب المجتبى من المجتنى ، وكتاب الاذكياء ، وكتاب الخاطر . وله فضلا عن هذا كتب فى سيرة الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز وغير ذلك من الكتب والاسفار .

ويعتبر ابن الجوزى من أئمة العلماء فى الاسلام وكبار الوعاظ الذين صار الوعظ على أيديهم فنا له قواعده وله أصوله .. واتسمت مجالسه – وارتفعت أقدار رجاله وكان يحضر دروسه عدد غفير من الخلق، بل ان الخليفة الناصر كان يتجامل على نفسه لحضور هذه الدروس ، وكذلك كان يفعل الخليفة المستضىء الذى ألف له ابن الجوزى كتابا أطلق عليه « المصباح المضىء فى دولة المستضىء » .

والطريف ان ابن الجوزى وصف هذه المجالس التى كان يعقدها بباب بدر فى بغداد اذ كانت تغلق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام، واذا جاء بعد العصر فتح له الباب ، وزاحم معه من يمكنه أن يزاحم حتى قال أمير المؤمنين عنه : ما هذا الرجل آدمى بما يقدر عليه من الكلام ..

وروى أن الخليفة المستضىء العباسى كان يسمع وعظه ذات مرة ، فالتفت الى ناحية وهو فى الوعظ ، وقال : يا أمير المؤمنين ، ان تكلمت خفت منك ، وان سكت خفت عليك ؛ وان قول القائل لك – اتق الله – خير من قوله لكم ، انكم أهل بيت مغفور لكم ، وكان عمر بن الخطاب يقول اذا بلغنى عن عامل انه ظلم فلم أغيره فأنا الظالم وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقر أو لا تقرقر ، والله لا ذاق عمر سخينا حتى

يخصب الناس • فبكى المستضىء وتصدق بمـــال كثير وأطلق المحبوسين. وكسا خلقا من الفقراء •

وقد كان ابن الجوزى فى خواطره التى يرسلها فى كتبـه يغوص الى أعماق النفس الانسانية ويصل الى خلجات القلوب ونبضات الاحساس ويتعرف على كنه الحقائق والدقائق التى تكمن بين طيات الصـــدور ، ويدرس بواعثها ودوافعها • وقال : ان الانســان اذا عرضت له جوانب الدنيا بلذاتها المحرمة انقاد اليها ، ومشى معها ولا يجد فى ذلك مشـقة أو تعبا واذا عرضت الآخرة بتكاليفها وقيودها لم يستطع الانقياد اليها الا بالمشقه البالغة والتعب الشديد ، وذلك لان مثل الطبع فى ميله الى الدنيا كالماء الجارى فانه يطلب الهبوط وانما رفعه فوق ــ يحتـــاج الى التكلف •

وقال : ان المؤمن ليس بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب ، انما المؤمن هو الكامل الايمان ، ولا يخـــالج قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجرى وسوسة ؛ وكلما اشتد البلاء عليه زاد ايمانه ، وقوى تسليمه •

وقال سبب صلاح الاخيار هو النظر وأعنى به النظر العقلى أو الفكر والتدبير ، وسبب اهمال الاشرار هو اهمال النظر،لان العاقل ينظر فيعلم انه لابد له من صانع وان طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم قياده الى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه اليه ، ويزلفه لديه •

زد على ذلك أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل « وتلك الايام نداولها بين الناس » فتارة فقر ، وتارة غنى ، وتارة عز وتارة ذل وتارة يفرح الموالى وتارة يحزن الاعالى ، فالسعيد من لازم أصلاواحداعلى كل حال ، وهو تقوى الله عز وجل فانه ان استغنى زانته ، وان افتقـــر فتحت له أبواب الصبر ، ان عوفى تمت النعمة عليه ، ولا يضره أن نزل به الزمان أو صعد ، أو أعراه أو أشبعه أو اجاعه ، لان جميع تلك الاشياء تزول وتتغير والتقوى ــ أصلا ــ السلامة وهى حارس لا ينام •

ونبه ابن الجوزى كل ذى لب وفطنة بأن يحذر عواقب المعـــاصى ، فانه ليس بين الآدمى وبين الله تعالى قـــرابة ولا رحم ، وانما هـو قائم بالقسط • حاكم بالعدل ، وان كان حلمه يسع الذنوب فانه اذا شاء عفا فعفا عن كل كثيف من الذنوب وان شاء أخذ باليسير فالحذر الحذر •• والله الله فى مراقبة الحق عز وجل فان ميزان عدله تبين فيـــه الذرة ، وجزاؤه مراصد للمخطىء ، ولو بعد حين ، وربما ظن أنه العفو وانما هو امهال •

واستنكر ابن الجوزى الرياء فى العبادة وكان يرى ان أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم على حين كان سفيان الثورى يقول : « لا أعتبر بما ظهر من عملى » وكان السلف الصالح يسترون أنفســـهم ، وكان أيوب السختيانى من علماء القرن الثانى للهجرة يطول قميصه حتى يقع عـلى

قدميه ويقول : « كانت الشهرة في التطويل واليوم الشهرة فى التقصير» .

أما ابن الجوزى فيرى ان ترك النظر الى الخلق ومحو الجاه من القلوب بالتعمل واخلاص القصد وستر الحال هو الذى رفع من رفع · ويروى أن أحمد بن حنبل كان يمشى حافيا فى وقت ويحمل نعليه فى يده ويخرج للقاط ، أما بشر فكان يمشى حافيا على الدوام وحده وكان معروف يلتقط النوى ·

ولا يشير ابن الجوزى فى حديثه الى وجوب اقتفاء أثر هؤلاء العلماء انما يصور حالهم فى معرض الرياء فى العبادة وفى مجال آخر يدعو الى النظافة والعناية بالمظهر ويقول : ان خلقا كثيرا من الناس يهملون أبدانهم ، فمنهم من لا ينظف فمه بالخلال بعد الاكل ومنهم من لا ينقى يديه ويغسلها ومنهم من لا يستاك ، ومنهم من لا يكتحل ومنهم من لا يراعى الابط الى غير ذلك فى حين أمر الدين المؤمن بالتنظف والاغتسال للجمعة لاجل اجتماعه بالناس ، ونهى عن دخول المسجد اذا أكل الثوم وأمر الشرع بتنقية البراجم (مفاصل الاصابع) وقص الاظفار والسواك والتطيب وغير ذلك من الآداب ، واستنكر أن يهمل المؤمن أظفاره فيجمع تحتها الوسخ المانع للماء فى الوضوء ، واستنكف السرار أو الدنو لحديث السر والريح الخبيثة تتصاعد من الافواه ، وقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم كان أنظف الناس وأطيب الناس ، ساقه ربما انكشفت فكأنها جمارة — وهى باطن جذع النخلة — وكان لا يفارقه المسواك ، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة ، وقالت الحكماء : من نظف ثوبه قل همه ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « مالكم تدخلون على قلحا — أى صفر الأسنان — استاكوا » . وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك · فالمتنظف ينعم نفسه ، ويرفع فيها عقدها ، وقالت الحكماء : « من طال ظفره قصرت يده ثم انه يقرب من قلوب الخلق وتحبه الناس لنظافته وطيبه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ، ثم انه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فان النساء شقائق الرجال فكما انه يكره ذلك منها فكذلك هى تكرهه ، وربما صبر هو على ما يكره وهى لا تصبر ·

وقد تبين ابن الجوزى فضل العلم على الزهد بشرط أن يكون معه العمل ، واذا عظم نفسه خفيت عليه أخطاؤه ، وان من العلماء من يفتى بلا علم حفظا للمظاهر ولئلا يقال عنه انه جاهل ، وانه لا يفيد العلم الا مع ترقيق القلب ، فيجب مزج الفقه والحديث بسير الصالحين ·

هذه بعض آراء ابن الجوزى فى الآداب الاسلامية الرفيعة ، وله فضلا عن ذلك آراء فى تربية النفس والصبر ومخالفة الهوى ، والصبر على المرض والصلات بين الرجل والمرأة والخوف والرجاء والتوكل والتشبيه والتأويل والسعادة والعزلة والطب والصحة والمرض ·

وهى آراء قيمة لها أثرها وخطرها فى مجالات المعرفة الانسانية ·

القرطبى

تحتفل الامة العربية بعد شهور بذكرى عالم عربى مشهور وصاحب تفسير كبير وهو أبو عبد الله القرطبى مؤلف كتاب الجامع لاحكام القرآن وهو أشهر كتبه ، وعدة مؤلفات أخرى .

وكان عبد الله القرطبى من عباد الله الصالحين وشيوخه الورعين المتنسكين الذين يخافون الله ويتبعون كتابه ، ويزهدون فى الدنيا وينصرفون عن لذائذها ودنياتها ويعكفون على عبادة الله والتقرب اليه

وعاش أبو عبد الله القرطبى فى القرن السابع الهجرى فى الاندلس وقضى أغلب حياته فى مدينة قرطبة وهى احدى المدن العربية الشهيرة بمساجدها ومعالمها الاسلامية الخالدة .

وسمع أبو عبد الله القرطبى من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى بعض شرحه لكتاب « المفهم ، لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم »

وحدث عن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى وحدث أيضا عبد الحافظ أبى الحسن على بن محمد بن على بن حفص اليحصبى وغيرهما .

ويمثل أبو عبد الله القرطبى هذه الطائفة من علماء التفسير فى المغرب الذين لا تقل جهودهم فى خدمة الاسلام ، وتفسير القرآن ، وعلم الحديث والفقه عن علماء المشرق ويصور حقبة خالدة من تاريخ العرب فى هذه البلاد .

وقد جمع القرطبى فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا أطلق عليه «الجامع لاحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان» وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا ، وقد أسقط المؤلف من كتابه القصص والتواريخ وكثيرا من الاسرائيليات التى حفل بها التفسير عن كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، وأثبت عوضا عن ذلك أحكام القرآن واستنباط الادلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ .

وتفسير القرطبى يختلف عن تفسير الكشاف فى حقائق التنزيل الذى كتبه الزمخشرى من أهل خوارزم العراق وجنح فيه الى مناقشة آراء المعتزلة موضحا الفساد ومواضع الخطأ والخطل فيها كما تعرض الى الناحية

البلاغية فى القرآن الكريم ووضح مواضع الجمال فى التشبيهات والاستعمارات والكنايات التى زخر بها الكتاب العزيز .

وقد قام شرف الدين الطيبى من أهل تبريز من عراق العجم فى ذلك الوقت بشرح كتاب الزمخشرى هذا وتتبع آيه ، وبين أن البلاغة انما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة . وقد دار النقاش فى الكتاب وشرحه حول الموضوعات البلاغية التى أثارها أسلوب القرآن الكريم على العكس من تفسير القرطبى الذى لم تثر فيه مثل هذه المسائل الصفحات الطوال ووجهات النظر المتعددة .

أما منهجه فى هذا التفسير فهو اضافة الاقوال الى قائلها والأحاديث الى مصنفيها اذ أنه من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله على حد تعبيره وكثيرا ما يجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه الا من اطلع على الحديث فيبقى من لا خبرة له حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم . ولا يقبل الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضاف الى من أخرجه من الائمة الاعلام والثقات المشاهير من علماء الاسلام .

وكان رائد القرطبى فى هذا العمل الجليل الذى أقدم عليه قوله تعالى فى كتابه العزيز « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » كما استشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ان لله أهلين من الناس » قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال : هم أهل القرآن أهل الله وخاصته فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ويتذكر ما شرح له فيه ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحيه .

وروى القرطبى فى هذا الكتاب بعض ما جاء فى الآثار وأول ذلك ما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين قال : وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الانبارى النحوى اللغوى فى كتاب الرد على من ألف مصحف عثمان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ان القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ان هذا القرآن هو حبل الله النور المبين ، والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ، والله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ،وان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، وأن أقفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله » .

بهذه الروح الورعة النقية ، وهذه النفسية السليمة المؤمنة مضى أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره ، الجامع لاحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان » وذكر طرفا فى تفسيره من اللغات والاعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما ذكر

من الاحكام ونزول الآيات ، ذاكرا ما يبين معانيها مبينا ما أشكل فيها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف .

وتضمن كتابه كذلك أبوابا فى فضائل القرآن والترغيب فيه ، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به وكيفية التلاوة لكتاب الله وما يكره فيها ومايحرم واختلاف الناس فى ذلك وتحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره ، وما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه وما جاء فى اعراب القران وتوضيحه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا وما جاء به فى فضل تفسير القرآن وأهله ، وما جاء فى حامل القرآن ومايلزم قارىء القرآن وحامله من تعاليم القرآن وحرمته ، وماجاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة فى ذلك ومراتب المفسرين وكيفية التعليم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء انه سهل على من يقدم العمل دون حفظه ، ووقف طويلا عند قول الرسول الكريم : « ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما يتيسر منه » وتعرض لجمع القرآن وسبب كتابة عثمان المصاحف واحراق ما سواها . وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وذكر معنى السورة والآية والحرف وهل ورد فى القرآن وغير ذلك من المباحث الاسلامية التى تهم الدارسين والباحثين فى القرآن وتفسيره ، ولعلها كانت من المراجع التى رجع اليها جلال الدين السيوطى فى كتابه المعروف « الاتقان فى علوم القرآن » كما رجع اليها غيره من العلماء .

وقد مضى القرطبى فى تفسيره للكتاب العزيز بعد ذلك حتى جاء تفسيره فى اثنى عشر مجلدا ، وما لبث أن توفى فى منية ابن خصيب فى الاندلس حيث دفن بها فى ليلة الاثنين التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ .

وللقرطبى كتاب آخر يسمى « الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى » وكتاب « التذكرة بأمور الآخرة » ، وكتاب شرح التقصى ، وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة » ، وفى ذلك يقول ابن فرجون فى كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، « مذهب مالك » : لم أمض على تآليف أحسن منه فى بابه .

وللقرطبى أرجوزة جمع فيها أسماء النبى صلى الله عليه وسلم وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هذا .

وله كتاب التذكار فى أفضل الاذكار وقد خرج أحاديثه وعلق حواشيه العلامة المحدث السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغمارى ونشره محمد أمين الخانجى عام ١٣٥٥ هـ فى طبعة جديدة .

وقد تضمن هذا الكتاب مباحث شتى تتصل بالكتاب الكريم فيها ان القرآن كلام الله عز وجل وهو غير مخلوق وفضائل القرآن وتفسير قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » الى آخر الآية الكريمة وان أفضل الخلق ايمانا من عمل بما فيه ، وتضمن الكتاب كذلك مباحث فى المدة التى يستحب فيها ختم القرآن وفى أن القلوب تصدأ

وأن جلاءها تلاوة القرآن وأن العلم والقرآن ميراث الانبياء عليهم السلام ، وضم الكتاب كذلك مباحث فى دفع البلاء بتعلم القرآن وأخذ الاجـــرة على تعليم القرآن وحسن الصوت وترك الترجيع والتطريب ونحو ذلك والبكاء والخشوع عند تلاوته والخشية عند سماعه وما الى ذلك .

وصفوة القول أن كتاب القرطبى الأخير يعد غذاء روحيا نافعا لكل المؤمنين المتعطشين الى الارتواء من منهل القرآن العذب السائغ ، ورحيقه الحلو المذاق ، ومع أن الكتاب كتب بطريقة روحية خالصة ، فانه لا يخلو من منهج علمى سليم ، وحقائق دينية راسخة ، وقد وضعه مؤلفه على طريقة التبيان للنووى .

هذا وقد كان العلامة القرطبى برغم هذه المجهودات الدينية الكبرى رجلا متواضعا طيب المعشر حلو المجلس ، حسن الطوية ، ويروى صاحب نفح الطيب المقرى « أنه كان يمشى بثوب واحد وعلى رأسه « طاقية » ، مما يدل على زهده وتقشفه وورعه ونسكه .

ولعل خير ما نختتم به هذه الترجمة الموجزة عن أبى عبد الله القرطبى قول الرسول الكريم عليه السلام : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

وقد ترك القرطبى علما صالحا لايزال الناس ينتفعون به حتى اليوم . ولا يزالون يتذاكرونه برغم مرور الحقب وتباعد الأزمان .

الأخطـــل

الاخطل هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة من بنى تغلب ، ويكنى أبا مالك وهو شاعر أموى مشهور ، واختلف فى سبب تلقيبه بالاخطل فقيل : انه هجا رجلا من قومه فقال له : يا غلام ، انك لأخطل ، أى سفيه ۰ والمعروف أنه سمى بالاخطل لبذاءته وسلاطة لسانه على حين يقـــول ابن قتيبة : « الاخطل من الخطل وهو استرخاء الاذن ۰ ونقله صاحب خزانة الادب وعلق الشارح على ذلك بقوله : لا أعلم أحدا ذكر أن الاخطل كان طويل الاذنين مسترخيهما ، ولم يكن الشاعر نفسه متبرما بلقبه انما كان يسمى نفسه به أمام الخلفاء دون غضاضة ۰

ولد فى بادية العراق على شاطىء الفرات ثم تنقل فى شتى الامصار وقد تزوج الاخطل بيـــد أنه لم يلبث أن طلق زوجته لانه لم يرتح الى الاقامة معها ، وتزوج أخـــرى كانت مطلقة كذلك ، وروى أبو الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى أن هذه الزوجة الاخيرة تذكرت زوجها الاول ، أمام الاخطل فتنهدت متأسفة وكان بالاخطل مثل مابها فقال :

كلانا على هم يبيت كأنمـــــا ... بجنبيه من مس الفراش قـروح
على زوجها المـــاضى تنوح واننى ... على زوجتى الأخـرى كذاك أنوح

وعاش الاخطل فى زمن واحد هو وجرير والفرزدق وهم من طبقة واحدة فى الشعر وكان الاخطل يقيم فى الحيرة فدارت مهاجاة بينه وبين كعب بن جعيل شاعر تغلب ، فغلبه الاخطل وأفحمه فصار هو المقدم بين شعرائها ۰۰

وكان الاخطل ينقى شعره فينظم تسعين بيتا ، ويختار منهـــا ثلاثين ، وسئل حماد الراوية عن الاخطل فقال : وما تسألوننى عن رجل حبب شعره الى النصرانية ۰ وتقرب الاخطل الى معاوية بما كان ينظمه من قصائد الهجاء ، ولما أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان أكرم الاخطل ، وكان بصيرا بالشعر حتى سماه شاعر بنى أمية ۰

وكان الأخطل نصرانيا يتعصب لدينه تعصبا ملحوظا ، وروى أبو الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى مانقله عن أبى عبد الملك قال : «رأيته بالجزيرة وقد شكا الى القس وأخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصىء كما يصىء الفرخ فقلت له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ فقال : « يابن

أخى ، اذا جاء الدين ذللنا » وسمع هشام بن عبد الملك الاخطل وهو يقول :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمـــال

فقال له هشام : هنيئا لك يا أبا مالك هذا هو الاسلام .. فقال له الأخطل : يا أمير المؤمنين مازلت مسلما فى دينى .

وكان أكثر الانصار لا يرون رأى معاوية فى الخلافة فأغرى يزيد ابن معاوية الاخطل بهجائهم فهجاهم هجاء مرا ، فشكوه الى معـــاوية ، فطالبهم بالبينة بيد أنهم لم يتمكنوا من اظهارها ، ولذلك احتمى الاخطل بيزيد ثم بخلفاء بنى مروان ، وصار شاعر دولتهم بقية حياته ، وأصابه الشـــؤم فى منـــاصرة الفرزدق على جرير فنصب له جرير وكاد جرير يصبح مطية الاخطل فى يوم من الايام اذ روى صاحب الاغانى أن الاخطل مدح عبد الملك وكان واجدا على جرير ، وجرير عنده فصاح عبد الملك : أجدت أنت مادحنا .. وأنت شاعرنا .. اركب .. قال جرير .. فرمى بردائه ، وكشف قميصه عن منكبيه ووضع يده على عنقى فقلت : يا أمير المؤمنين ، النصرانى الكافر لا يظهر على المســـلم ويركبه ، فقال أهل المجلس : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال : دعه ، وانفض المجلس .

وكان الاخطل يعاقر بنت الدنان ، ويشرب منها حتى الثمالة .

وروى أبو الفرج الاصفهانى فى الجزء الحادى عشر من كتــــاب الاغانى أن المتوكل الليثى الشاعر جاء يوما وهو فى الكوفة مع رفيق له الى الاخطل فقالا له : أنشدنا يا أبا مالك فقال : « انى لخائر (١) يومى هذا » فقال المتوكل وأنشدنا أيها الرجل فوالله لا تنشدنى قصيدة الا أنشدتك مثلها أو أشعر منها من شعرى قال : ومن أنت ؟ قال « أنا المتوكل » قال : انشدنى .. ويحك من شعرك . فأنشده المتوكل أبياتا حسنة السبك ولكنها باردة جافة ، فقال له الاخطل مامعناه : لو شربت لكنت أشعر الناس .

ومن أوصافه للخمر قوله فى قصيدة لامية مدح بها الشاعر خالد ابن عبد الله الاموى .

فصبوا عقـارا فى اناء كأنها اذا لمحوهـــا جـذوة تتأكل
تدب دبيبا فى العظـــام كأنه دبيب نمال فى نقا يتهيل (٢)

وأجاد الاخطل الشعر فى المدح اجـــادة اشتهر بها فى تاريخ الأدب العربى ومن أروع آثاره الشعرية فى هذا المضمار قصيدة « خف القطين » التى استهلها بالغزل ثم تخلص الى الممدوح عبد الملك بن مروان فمدحه ،

---

(١) خائر : منقبض غير نشيط
(٢) نقا : ما ارتفع من الأرض . يتهيل : ينحدر

وقومه ، وذكر خدمات الاخطل خاصة وبنى تغلب عامة فى سبيل الامويين منتهيا بهجاء أعداء أمية من قيس وحلفائهم ولا سيما كليب بن يربوع قوم جرير خصم الاخطل والفرزدق ومطلع القصيدة :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى صرفهـا غير (١)

كأننى شـــارب يوم استـبد بهم
من قرقف ضمنتها حمص أو جدر (٢)

ومن أجود مدحه فى هذه القصيدة قوله :

حشد على الحـــق عيافو الخنا أنف
اذا ألمت بهم مكروهة صـــبروا (٣)

وان تدجت على الآفاق مظلمــــة
يكن لهم مخــرج منها ومعتصر (٤)

أعطـــاهم الله جـــدا ينصرون به
لا جد الا صــــغير بعد محتقر (٥)

لم يأشروا فيــــه اذ كانوا مواليه
ولو يكون لقـــوم غيرهم أشروا (٦)

شمس العـــداوة حتى يستقاد لهم
واعظم الناس احـلاما اذا قدروا (٧)

وقال فى هجاء كليب بن يربوع قوم جرير وهم بنو تميم :

أمــا كليب بن يربوع فليس لهـــم
عند التفارط ايراد ولا صـــدر (٨)

مخلفون ويقضى النـــاس أمرهـــم
وهم بغيب وفى عميـــاء ما شعروا

قـــوم أنابت اليهم كل مخـــزية
وكل فاحشــــة سبت بهـــا مضر

---

(١) خف القطين : ارتحل القوم • نوى : فراق وتحول
(٢) قرقف : خمر • جدر : قرية بين حمص وسليمة
(٣) عيافوا الخنا : كارهون لقول الفحش •
(٤) تدجت : أظلمت • معتصر : ملجأ ومعقل •
(٥) جدا : حظا
(٦) أشروا : بطروا
(٧) شمس العداوة : جمع شموس وهو الصعب
(٨) التفارط : ورود الماء •

وأبدع الاخطل في الوصف أيما ابداع فوصف الفلاة المقفرة ، ووصف الحيوانات الضارية كالاراقم والذئاب والحمر والبقر الوحشى كما وصف الحيوانات المستأنسة والدجاج والكلاب والابل ، ووصف الطبيعة الخلابة ، ونهر الفرات ، وما يعبره من سفن ، ووصف الموج المتدفق ، والزبد المتطاير ، وما الى ذلك ٠

ويعد الاخطل على رأس الشعراء الذين وصفوا السفن والملاحة في الادب العربي اذ كانت سواحل البحرين من منازل قومه القديمة « فملئوا ظهر البحر سفينا » على حد تعبير عمرو بن كلثوم » ثم انتقلوا الى ضفة الفرات فرأى السفن تمخر عباب البحر ، وافتن في وصفها ، ماشاء له الافتنان وقد اعتقد بعض شراح ديوانه أن الاخطل عندما يذكر السفن في قصائده لا يقصد السفن التي تمخر عباب البحر انما يقصد سفينة الصحراء أو سفن البر كما يقول ذو الرمة : « سفينة بر تحت خدى زمامها » كما جعل الشارح الجمال ملاحا ٠

بيد أن الواقع يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، فالاخطل ينتمى الى قبيلة عرفت البحر وركبت متنه ، فليس بغريب اذن أن يلجأ الاخطل نفسه الى هذا الوصف ومن قصائده التي تعرض فيها لوصف السفن هذه القصيدة ٠

يفارقن الخليط على سفين يشق بهن أمواجا صعابا

أما ديوان الاخطل فقد عني بطبعه الاب انطون صالحانى عن نسخة في دار الكتب في بطرسبرج استنسخها رزق الله حسون من أدباء القرن التاسع عشر المشهورين وطبعها في بيروت عام ١٨٩١ ، وعنى الاب صالحانى بطبع الديوان طبعة محررة عن نسخة وجدت في بغداد ، وصدرت طبعة في بيروت عام ١٩٠٩ ، وهناك طبعة للديوان على الحجر باعتناء الدكتور « عريفينى » عن نسخة وجدت في اليمن وظهرت في بيروت عام ١٩٠٧ ، وعليها تعليقات وشروح ٠ وقد سمع الاب صالحانى بنسخة من ديوان الاخطل في طهران ترجع الى عام ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) فتكون أقدم النسخ المعروفة ومازال يعمل ويفاوض حتى حصل عليها ٠ ونشر فيها مازاد على منشورات النسخ السابقة في كتاب صدر عام ١٩٣٨ بعنوان « التكملة لشعر الاخطل » ٠

أما قصيدة « خف القطين » فقد نشرت مع ترجمة لاتينية وطبعت في ليدن عام ١٨٧٨ ونشر المستشرق الكبير كوزان دى برسفال بحثا نشره في المجلة الآسيوية عام ١٨٣٤ بعنوان ملاحظات على الشعراء الثلاثة الاخطل ، والفرزدق ، وجرير ، كما نشر الاب لامانس عام ١٨٩١ في باريس كتابا بعنوان « شاعر الأمويين » ٠ كما كتب فصلا عنه في دائرة المعارف الاسلامية ٠

وخصص الأب لويس شيخو فصلا عنه في كتاب « شعراء النصرانية بعد الاسلام » ٠

وشعر الأخطل متناثر في كتاب الاغاني للاصفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وغير ذلك من المصادر ٠

الحسن البصري

حينما عرف الغزالى التصوف فى احياء علوم الدين قال : ان التصوف أمر باطن لا يستطلع عليه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته ، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العلم فى اطلاق اسم الصوفى ، ويفضل أن يلاحظ فى الصوفى خمس صفات : الصلاح والفقر وزى الصوفية ، وألا يكون مشتغلا بحرفة ، وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة ، وقد وافق كثير من علماء المتصوفة الغزالى على تعريفه ، بل لقد اشترط بعضهم اشتراطات أخرى شديدة على المتصوفة لا مجال لذكرها الآن •

ولكن المهم أن هنالك فئة من الزهاد والعباد سبقوا حركة التصوف ونهجوا فى حياتهم نهجا أشبه بنهج المتصوفة ، ومهد زهدهم وعبادتهم لخروج التصوف الى معناه المعروف فى تاريخ الأديان ، ومن هؤلاء الزهاد والعباد الحسن البصرى ، المسلم الزاهد •

وقد كان الحسن البصرى أو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن ، حليف الخوف والحزن ، وأليف الهم والشجن وعديم النوم والوسن ، نموذجا حيا للفقيه الزاهد ، فى متاع الدنيا وزينتها وزخرف حياتها وبهجتها وشهوة النفس ورغبتها •

ولقد تشكل الزهد فى الاسلام بطابعين طابع الخوف وطابع الحب :

ومثال الاول الحسن البصرى الذى نتحدث عنه اليوم •

ومثال الآخر رابعة العدوية التى أخرجته من الخوف من عذاب النار، والشوق الى ثواب الجنة الى حب الله وطاعته والانس به والاقبال عليه ، والشوق اليه فقالت فى أحدى مناجاتها : « الهى ، اذا كنت أعبدك رهبة من النار ، فأحرقنى بنار جهنم ، واذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنى اياها ، أما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا الهى جمالك الازلى » •

أما الحسن البصرى فكان من طابع الزهد الاول وقوامه الخوف من العذاب ، والأمل فى الثواب ، وليس أدل على امعانه فى الخوف ، وخشيته ورهبته من أن الشعرانى صاحب الطبقات الكبرى قال عنه : « انه قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق الا له » وساقه هذا الخوف الى حزن عميق يكتنفه اكتنافا ويطويه طيا من كثرة التفكير والتأهل والتقدير فقال: « ان المؤمن يصبح حزينا ، ويمسى حزينا ولا يسعه الا ذلك ، لأنه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيبه من المهالك ؟ » •

كما قال : « الرجاء والخوف مطية المؤمن » وقال كذلك : « ان المؤمن يصبح حزينا ويمسى حزينا ويتقلب باليقين فى الحزن ، ويكفيه الكف من الثمر والشربة من الماء »

وهكذا كان الحسن البصرى تظلله دائما سحابة من الحزن ، وغيمة من الشجن ويدفعه وازع من الخوف ، وأمل من الرجاء ، غير أنه كان يضمر للحياة القلا والكراهية ، ويعلن لها المقت والنفور ، وينصح الناس بالتجرد منها ، والزهد فيها والانصراف عن ملاذها وشهواتها التى تجعل من الناس بهيمة تسعى وتدب على الارض ، فقال : « يابن آدم ، انت اليوم فى دار هى لاقطتك ٠٠ ثم تفضى بأهلها الى أشد الأمور وأعظمها خطرا ، فاتق الله يابن آدم ، وليكن سعيك فى دنياك لآخرتك ، فانه ليس لك من دنيـــاك شىء الا ما صدرت أمامك ولا تدخرن عن نفسك مالك ، ولا تتبع ما قـــد علمت أنك تاركه خلفك » ٠

وكان الحسن البصرى يتوق الى الجنة ، ويهفو قلبه الى نعيمها العظيم وخيرها السابغ وفضلها العميم وكانت عينـــاه تدمعان حينما يتلو القرآن الكريم ويتذكر قوله تعالى فى سورة التوبة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» او قوله تعالى فى سورة الأعراف : «ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» أو غير ذلك من الآيات البينات التى تشوق المؤمنين فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ٠

غير أن الحسن البصرى كان يرى أن الجنـــة لا يمكن أن تهدى الى النـــاس أهداء أو تسدى اليهم اسداء ، انما لا بد من سعى فى سبيلها ، ولا بد من جهاد من أجلهـــا ، ولا بد من سلوك طريق يؤدى اليها ، وهذا الطريق قوامه العمل الخالص ٠ وفى هذا يصرح الحسن البصرى لابن آدم قائلا : « يابن آدم عملك ٠٠ عملك فانمـــا هو لحمك ودمك فانظر الى أية حال تلقى عملك لأن لأهل التقوى علامات يعرفون بها : صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، وحسن الخلق ، وسعة الخلق ، مما يقربك الى الله عز وجل » ٠

وكان الحسن البصرى يرى أن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار يسير ، وكان ينظر الى الموت نظرة حصيفة : رأى رجلا يأكل بين المقـــابر فزجره ، وأنبه وقال : « أما فى حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل ؟ » ومر عليه شاب وعليه بردة فدعاه فقال : « ايه يابن آدم ، معجب بشبابه ، معجب بجمـــــاله ، معجب بثيابه ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأن قد لاقيت عملك ، فداو قلبك ، فان حاجة الله الى عبـــاده صلاح قلوبهم » ٠

وقد دفـــع الزهد الحسن البصرى الى الانصراف عن مظاهر الحياة المادية ، وما يتبعها من مال وعروض ، وضياع ونقود ، وجاه ونفوذ ، فقال: « بئس الرفيقان الدرهم والدينار ٠٠ لا يرافقانك حتى يفارقاك » ٠

وقد بنى أحدهم بماله دارا فخمة ضخمة ، ودعا الحسن الى دخولها فدخل فنظرها ثم قال : « أخربت دارك وعمرت دار غيرك ٠ لاغرك من فى

الأرض ، ومقتك من فى السماء • طأ الارض بقدمك فانها عن قليل قبرك ، انك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك !»

وهكذا أسس الحسن البصرى مذهبه القـــائم على الزهد الخاضع لسلطان الحزن ، والبكاء والخوف من النار ، والحنين الى الجنة ، والشوق الى نعيمها المقيم ، ووصفها بالجميل الذى ما لا رأته عين ، ولا سمعته أذن ، ولا مر على لسان •

وقد ظل الحسن ينشر مذهبه بين اتبـــاعه ومريديه حتى شاعت طريقته ، كما شاع أسلوب رابعة العدوية فى زهدها ، وأخذ اتباع هذين المذهبين من الزهد ينتشرون هنا وهناك ، وفى أرجاء البـلاد الاسلامية ، طوال القرنين الأول والثانى الهجريين حتى أجتمع شملهم ، والتأم شتاتهم فى هيئة منظمة أو شـــبه منظمة تعرف بالصوفية ، ولم تلبث أن ظهرت طرائق متعددة للمتصوفة وأساليب مختلفة ولكنها جمعت بين صفوفهم •

وهنا يحق لنا أن نقول : ان الحسن البصرى لم يكن متصوفا بالمعنى المعروف انما كان زاهدا عابدا والزهد غـــير الفقر والتصوف ، ويقـــول السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » : ان التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد ، ولكن بزيادة أوصاف واضافات بدونهـا لا يكون الصوفى صوفيا ، ولو كان زاهدا فقيرا فالتصوف أعلى من الفقر والزهد ، وان كان منطويا عليهما ومستندا اليهما ، لأنهمـــا يمهدان الى النغمات الروحية ، والاشراقات الالهية ، والتصوف علم لبواطن القلوب •

وقد تعددت أقوال الصــــوفية وتباينت تعريفاتهم فى مفهوم معنى التصوف وتفرقوا فى ذلك شيعا وأحزابا فى القرون المختلفة •

لم يكن الحسن البصرى اذن متصوفا انمـــا مهد لظهور التصوف بما سلكه من سلوك الزاهد المتبتل وبمـــا تفوه به من حكم كالدر المنثور والزهر المنضود ، حتى قال الجنيد المتصوف فى تعريف التصوف : « هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به وتكون مع الله بلا علاقة » كما قال آخر: « هو استرسال النفس مع الله على ما يريد » وقال سهل : « الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفـــكر ، وانقطع الى الله دون البشر واستوى عنده المال والمدر » وقال السهروردى : « الصـــوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شـــوائب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلمـــا تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وفد منها الى ربه ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعـــالى : « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » •

ومن يتأمل فى هذه الأقوال يلاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن أقوال الحسن البصرى فى الحياة والزهد ، وتطهـير النفوس ، وايثار الفقر الى الله عز وجل ، بيد أن الحسن كان يطوى هذا كله بغلالةمن الخوف والرهبة والأسى والحزن وهكذا ، كما كان يميزه زهده وتعبده •

وقال الغزالى : « كان الحسن أشبه النـــاس كلاما بكلام الأنبياء ، وأقربهم هديا من الصحابة ، اتفق العلماء فى حقه على ذلك » . وقال ابن عربى : « الحسن عندنا من أئمة أهل الطريق الى الله جل جلاله ، ومن أهل الاسرار والاشارات » وقال الحافظ : « كان يستثنى من كل غاية ، فيقال : فلان أزهد النـــاس الا الحسن ، وأفقه النـــاس الا الحسن ، وأفصحهم الا الحسن » .

ونظر اليه راهبان فقـــال أحدهما لصاحبه : « مل بنا الى هذا الذى سمته سمة المسيح فعدلا اليه ، فالفياه مفترشا لذقنه راكعا وهو يقول : « يا عجبا لقوم أمروا بالزاد ، وأذنوا للرحيل ما الذى ينتظرون ؟» .

ومن أحسن كتب الحسن البصرى كتاب أدب الدنيـــا والدين الذى يعتبر ذخرا نفيسا فى الأدب الاسلامى الكريم والخلق الانسانى الفاضل .

أبو فراس الحمدانى

أبو فراس الحمدانى هو الحارث بن أبى العلاء السعيد بن حمدان بن حمدون الحمدانى ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة الحمدانى ، شاعر أمير عاش فى القرن الرابع الهجرى وقال عنه الثعالبى فى يتيمة الدهر : « كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما ، ونبلا ، ومجدا وبلاغة، وبراعة وفروسية ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا فى شعر عبد الله بن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ، ونقدة الكلام ، وكان الصاحب بن عباد يقول : « بدىء الشعر بملك ، وختم بملك » يعنى امرأ القيس وأبا فراس .

وكان المتنبى يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتجافى جانبه ، فلاينبرى لمباراته ، ولا يجترىء على مجاراته ، وانما يمدحه ويمدح من دونه من آل حمدان تهيبا له واجلالا ، لا اغفالا ولا اخلالا .

وكان سيف الدولة يعجب جدا بحماسة أبى فراس ، ويصطحبه فى غزواته ، ويستخلفه على أعماله ، وأبو فراس ينثر الدر الثمين فى مكاتباته اياه ، ويوفيه من سؤدده ، ويجمع بين أدبى السيف والقلم فى خدمته . وقد أسره الروم فى بعض الوقائع وأقام بالأسر أربع سنوات وله فى الأسر أشعار كثيرة من أجود ما قاله .

حكى ابن خالويه: قال كتب أبو فراس الى سيف الدولة وقد شخص من حضرته الى منزله « بمنبج » كتابا صدره بقوله : « كتابى - أطال الله بقاء مولانا - « من المنزل » ، وقد وردته ورود السالم الغانم مثقل البطن والظهر وفرا وشكرا » . فاستحسن سيف الدولة بلاغته ، ووصف براعته ، وبلغ أبا فراس ذلك فكتب اليه :

هل للفصاحة والسما حة والعلا عنى محيد
فى كل يوم أستفيد من العلاء وأستزيد
ويزيد فى اذا رأيتك فى الندى خلق جديد

وكان سيف الدولة ، قلما ينشط لمجلس من مجالس الانس فى هذه الآونة لاشتغاله عن ذلك بتدبير الجيوش ، وملابسة الخطوب ، وممارسة الحروب ، وصادف أن وفدت احدى المغنيات من قيان بغداد ، فتاقت نفس

أبى فراس الى سماعها ، ولم يرد أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة ، فكتب اليه يحثه على استحضارها فقال :

محلك الجوزاء أو أرفـــع وصدرك الدهناء أو أوسـع
وقلبك الرحب الذى لم يزل للجد والهزل به موضـــع
رفه بقرع العـود سمعا غدا قرع العوالى جـل ما يسمع

فبلغت هذه الأبيــات سيف الدولة الحمدانى فأمر القيان بحفظها وتلحينها حتى تنشد فى حضرته ·

وتأخر أبو فراس عن حضرة ســيف الدولة لعلة وجدها فكتب اليه يقول :

لقـــد نافسنى الــدهر بتأخـــيرى عن الحضرة
فمــــا ألقى من العلــــــــة ما ألقى من الحسرة

وأهدى الناس الى سيف الدولة وأكثروا فكتب أبو فراس :

نفسى فداؤك قـــــد بعثــــــت تعهدى بيد الرســول
أهــــديت نفسى انمـــا يهـــدى الجليل الى الجليل

وقال يشكره على صفحه عنه ، وتســامحه حياله ، مشيدا بمعروفه وفضله ، وتقصير أبى فراس عن الثناء عليه :

ومالى لا أثنى عليك وطالمـا وفيت بعهدى والوفاء قليـل
وأوعدتنى حتى اذا ماملكتنى صفحت وصفح المالكين جميل

وكتب يستعطفه :

ان لم تجــــاف عن الذنو ب وجدتهـــا فينا كثـــيرة
لـــكن عادتك الجميلـــــة أن تغض على بصــــيرة

وكتب يعزيه :

لا بــــد من فقــد ومن فاقد هيهات مافى الناس من خالد

ونظم أبو فراس الحمدانى جملة من القصـــائد فى وصف الحروب والطعان التى اشترك فيها سيف الدولة · ومن قصيدة يذكر فيها ايقاعه ببنى كعب وتعد من عيون شعره :

ألم ترنا أعز النــــاس جارا وأمنعهم وأمرعهم جنـــابا

لنـا الجبل المطل على نزار ... حللنا المجد منه والهضـــابا
يفضلنـــا الآنام ولا نحاشى ... ونوصف بالجميل ولا نحابى
وقــد علمت ربيعة بل نزار ... بأنا الرأس والناس الذنابى
ولمـــا أن طغت سفهاء كعب ... فتحنـــا بيننا للحرب بابا
منحناها الحرائب غـــير أنا ... اذا جارت منحناها الحرابا
ولمـــا ثار سيف الدين ثرنا ... كما هيجت أســـادا غضابا
أســـنته اذا لاقى طعـــانا ... صـــوارمه اذا لاقى ضرابا
دعانا والأســنة مشرعات ... فكنا عند دعـــوته الجوابا
صنائـع فاق صانعها ففاقت ... وغرس طاب غارسه فطـابا
وكنا كالسهـام اذا أصابت ... مراميها فراميها أصـــابا

وقـــد كان أبو فراس الحمدانى يستهل أغلب قصـــائده بالغزل والنسيب على النحو الذى كان يلجأ اليه الشعراء المتقدمون • ثم يعرج بعد ذلك الى الغرض الذى نظم من أجله القصيدة كالمدح أو الفخر أو الوصف أو نحو ذلك ومن ذلك قوله فى احدى قصائده :

أيلحـانى على آلعبرات لاحى ... وقد يئس العواذل منصلاحى
تملكنى الهوى بعــد التآبى ... وراضنى الهوى بعد الجماح

ومن الأبيات التى توضــــح فخره واعتزازه بشخصيته قوله الى أبى أحمد جعفر بن ورقاء :

انا اذا اشـــتد الزمـــا ... ن وناب خطـــب وادلهـــم
ألفيت حـــول بيوتنـــا ... عـــدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض الســـيو ... ف وللنـــدى حمر النعـــم
هذا وهـــــذا دأبنـــا ... يـــودى دم ويـــراق دم

ومن فخره قوله كذلك :

أقـــلى فأيام المحب قـــلائل ... وفى قلبه شـغل عن اللوم شاغل
تطالبنى البيض الصوارم والقنـــا ... بما وعدت جدى وفى المخـــايل
تدافعنى الايام عمـــا أرومـــه ... كما دفـــع الدين الغريم المماطل
خليـــلى شـــدا لى على ناقتيكما ... اذا ما بدا شيب من الفجر ناصل
فمثلى من نال المعـــالى بســـيفه ... وربمـــا غالته عنهـــا الغوائل
وما كل طلاب من الناس بالـــغ ... ولا كل سيار الى المجـــد واصل
وما المرء الا حيث يجعـل نفســه ... وانى لهـــا فوق السماكين جاعل
أصـــاغرنا فى المـــكرمات أكابر ... وآخـــرنا فى المأثرات أوائـــل
اذا صلت صولا لم أجد لى مصاولا ... وان قلت قولا لم أجد من يقـاول

وهكذا ظهرت فى شـــعر أبى فراس الحمدانى روح العزة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالشخصية ولا يرجـع ذلك الى أنه أمير ، بل لأنه أوتى

نفسا تواقة الى المعالى متعلقة بعظائم الأمور • ومن قصـــائده التى توضح هذه النفسية المتوثبة قوله :

غيرى يغـــيره الفعال الجـــافى ويحـــول عن شيم الكريم الوافى
لا أرتضى ودا اذا هو لم يـــدم عند الجفـــاء وقلة الانصـــاف
تعس الحريص وقـل ما يأتى به عوضـــا عن الالحاح والالحاف
ان الغنى هـــو الغنى بنفســه ولـــو آنه عارى المنـــاكب حافى
ما كل ما فـــوق البسيطة كافيا فاذا قنـــعت فـــكل شيء كافى
وتعـــاف لى طمع الحريص فتوتى ومروءتى وقنـــاعتى وعفـــافى
ماكثرة الخيل العتـــاق بزائدى سرفا ولاعدد السوام الضـــافى
خيلى وان قلت كثـــير نفعهـــا بين الصـــوارم والقنـــا الرعاف
ومكارمى عدد النـــجوم ومنزلى مأوى الكرام ومنزل الاضـــياف
شيم عرفت بهن منذ أنا يافـــع ولقد عرفت بمثلهـــا أســـلافى

وقد قرب سيف الدولة ابا فراس الحمدانى اليه ، وأقطعه على أثر مساجلة شعرية ضيعة منبج « تغل ألف دينار كل سنة » على حد تعبير ابن خلكان فى وفيات الأعيـــان • وتفصيل ذلك أن أبا فراس كان بين يديه يوما فى نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولى ؟ وليس له الا سيدى يعنى أبا فراس :

لك جســـمى تعـــله فـــدمى لـــم تحـــله

فارتجل أبو فراس وقال :

أنـــا ان كنت مالـــكا فلك الأمـــر كلـــه

فاستحسنه سيف الدولة الحمدانى وأعطاه تلك الضيعة

ولا غرو فى هذا فقد كان سيف الدولة الحمدانى بجانب شهرته فى حروبه صاحب همة عالية فى احياء العلم والأدب ، اذ جمع بساطة أعاظم الأدباء وأكابر الشعراء الذين كان من بينهم أبو فراس والمتنبى الذى اتصل بقصره تسعة أعوام كاملة والسرى الرفاء الشاعر الوصاف ، وأبو الفرج الببغاء ، وابن نباته السعدى وفيلسوف الاســـلام أبو نصر الفارابى وابن خالويه عالم اللغة والأدب الذى كانت تفد اليه وفـــود الطلاب من كل فج عميق •

ويقول الثعالبى فى يتيمة الدهر : « لمـــا أدركت أبا فراس حرفة الأدب وأصابته عين الكمال ، أسرته الروم فى بعض وقائعها ، وهو جريح وقد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ، وتطاولت مدة أسره لتعذر المفاداة ، وكانت تصدر أشعاره فى الاسر والمرض ، لفرط الحنين الى أهله واخوانه وأحبابه ، والتبرم بحاله ومكانه ، عن صدر حرج ، وقلب شجى ، فتزداد رقة ولطافة ، وتبكى سامعها ، وتعلق بالحفظ من سلاستها » •

ومن هذه الاشعار التى نظمها أبو فراس فى أسره وتعرف فى الأدب العربى باسم « الروميات » قوله :

ما للعبيـــد من الـــذى يقضى بـــه الله امتنـــاع
ذدت الأســـود عن الفرا ئس ثم تفرسنى الضباع !

وكتب أيضـــا الى سيف الدولة من الطريق ، وقد حملته الروم ، واشتدت به العلة وازداد عليه الوجع والألم :

هل تعطفـــان على العليـــل لا بالأســـير ولا القتيـــل
باتت تقليبـــه الأكـــف ســـحابة الليل الطويل
فقـــد الضـــيوف مكانه وبكاه أبنـــاء الســـبيل
وتعطلت ســـمر الرمـــا ح واغمدت بيض النصـــول
يا فارج الـــكرب العظيـ ـم وكاشف الخطب الجليـــل
كن يا قـــوى لذا الضعيـ ـــف وياعزيز لذا الذليـــل
قربه من ســـيف الهدى فى ظـــل دولته الظليـــل
لم أرو منه ولا شـــفيـ ـــت لطول خـــدمته غليـــلى
ياعـــدتي في النـــائبا ت وظلتى عنـــد المقيـــل
أين المحبـــة والذمـــا م وما وعـــدت من الجميل ؟

وكتب الى أمه يصف آلامه فى الاسر ويوصيها بالصبر والسلوان :

لولا العـــجوز بمنبـــج ما خفت أســـباب المنيـــة
ولكان لى عمـــا ســـألـ ـــت من الفدا نفس أبيـــه
لـــكن أردت مرادهـــا ولـــو انجذبت الى الدنية
أم بمنبـــج حـــرة بالحزن من بعـــدى حرية
يا أمنـــا لا تيـــئسى لله ألطـــاف خفيـــة
يا أمنـــا لا تحـــزنى وثقى بفضـــل الله فيـــه
كم حادث عنـــا جـــلا ه وكم كفـــانا من بليـــة
أوصيك بالصبر الجميـ ـــل فانه خـــير الوصية

ويشاء الله أن تموت أمه وتلفظ أنفاسها وهو ما برح فى الاسر يكتوى بناره فانكب يبكيها بدمع هتون :

أيا أماه كـــم بشرى بقربى أتتك ودونى الأجل القصير
الى من أشـــتكى ولمن أناجى اذا ضاقت بما فيها الصدور

وكان أبو فراس كريم الخلق نبـــيل الشعور حتى انه تذكر خادمه (منصور) وهو فى أسره ونظم له بضعة أبيات جاء فيها :

وكثـــير من الرجال حديد وكثـــير من القلوب صخور
انا أصبحت لا أطيق حراكا كيف أصبحت أنت يامنصور

ومن أروع شعره الذى نظمه قبل الوفاة تلك الابيات :

أبنيتى لا تجزعى كل الانام الى ذهاب
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى اذا كلمتنى وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب

وفى ربيع الآخر عام ٣٥٧ هـ قتل أبو فراس : وسبب ذلك أنه كان مقيما بحمص فجرى بينه وبين أبى المعالى بن سيف الدولة وحشة ، فطلبه أبو المعالى فانحاز أبو فراس الى حدود (بقرب حمص) فجمع أبو المعالى الاعراب من بنى كلاب وسيرهم فى طلبه مع قرعويه فأدركه ، وأخيرا قال قرعويه لغلام له أقتله فقتله ، وأخذ رأسه وتركت جثته فى البرية حتى دفنها بعض الاعراب ٠

وهكذا قتله مولى ابن أخت أبى المعالى عندما تبين له طمعه فى السلطان ٠

هذا وقد طبع ديوان أبى فراس الحمدانى عدة طبعات منها طبعة ظهرت فى بيروت عام ١٨٧٣ عن المطبعة السليمية دون شروح ، وطبعة ظهرت عام ١٩٠٠ مع شروح قليلة بقلم نخلة قلفاط ، وطبعت مختارات الثعالبى فى يتيمة الدهر فى دمشق فى أوائل القرن الحالى وطبعت فى ليدن عام ١٨٩٥ ومعها ترجمة بالألمانية للمستشرق الكبير رودلف دفوراك، ونشرت المطبعة الأدبية فى بيروت ديوان الشاعر عام ١٨٧٣ ، ولم يشر الثعالبى فى اليتيمة الى قصيدة أبى فراس فى رثاء والدته بيد أنها فى نسختين مختلفتين فى برلين ، وفى نسخة محفوظة باكسفورد ، وترجم أحد المستشرقين قصيدة أخرى من قصائده فى والدته الى الألمانية ٠

الشاعر الرمادى

هو شاعر عربى عاش فى أكناف الاندلس منذ ما يقرب من ألف عام ، واهتز للجمال وعشق قلبه احدى ربات الجمال فأرسل نغمات حلوة أسكرت الآفاق وترددت أصداؤها سحرية النبرات ، وكتب روائع خالدة وبدائع لامعة فى جبين الادب .

ولكن يد الدهر شاءت أن تسلبها فحملت مخطوط شعره أيدى المستشرقين الى برلين بين أطواء النفائس العربية حين اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأخذت تغرق برلين بالقذائف والحمم ، فنقلت ذخائر مكتبة برلين الى غارامين .

انه أبو عمرو يوسف بن هرون الرمادى الذى كتب عنه صاحب مطمح الانفس ومسرح التأنس فى كتابه المطبوع بالقسطنطينية عام ١٣٠٢ انه « شاعر مفلق انفرج له من الصناعة المغلق وومض له برقها المؤتلق وسال بها طبعه كالماء المتدفق فأجمع على تفضله المختلف والمتفق»

وقالت عنه دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الانجليزية : انه ربما سمى الرمادى لأنه من مدينة رمادة بالقرب من قرطبة أو ربما سمى بذلك نسبة الى الرماد ، والعرب كانت تكنى بكثرة الرماد عن الكرم .

وقد قضى الرمادى حياته فى مدينة قرطبة اللهم الا بضعة شهور قضاها فى مدينة سراقوجة وقد ذكر صاحب نفح الطيب فى كتابه أن قرطبة كانت من الاندلس بمثابة الرأس من الجسد .

وقالت دائرة المعارف البريطانية فى النسخة الانجليزية كذلك : ان الشاعر الرمادى قد أثرت فى حياته عوامل عدة : منها اتصاله بأبى على القالى مؤلف الامالى والخطيب (أبو الحسن) واتصاله بعد هذا وذاك بصاحبته خولة التى كانت على حظ وافر من الجمال وقسط ساحر من السحر الحلال ... وسميت خولة فى بعض المصادر بحلوة بالضم أو حلوة بالكسر .

اسمعه يقول :

على كبدى تهمى السحاب وتذرف ... وعن جزعى تبكى الحمام وتهتف

كأن السحاب الداكنات غواسل ... وتلك على فقدى نوائح هتف

الا ظعنت ليلى وبان قطينهـــــا ولكنني باق فلوموا وعنفـــــوا
وآنست فى وجه الصباح لبينهـا نحولا كأن الصبح مثـــلى مدنف

وقال أيضا يبكى حاله ويندب حبه :

فقدت دموعى يوســـفا فى حسنه فغدوت يعقوبا بشــدة وجـــده
وعميت مما قـد لقيت من البـكا حتى سجنت على الجفـــون ببرده

ولقد كان هذا الشاعر الى جانب هذا رائع التأملات دقيق النظرات فى الطبيعة تخلبه مجاليها وتسلب لبه مفاتنها ومغانيها وكأنى به وقـــد وقف أمام البحر الخضم يلقى بصره على الموج الشاحب الباهت الذى يطغى عليه الزبد بين الفينة والفينة فيذكر حبيبه الهاجر ويقول :

ورأيت فوق البحـــر در عـا فاقعـــــا من زعفـــران
يامن نأى عنى كمـــــا ينـــــأى لعينى الفرقــــدان
فـــأرى بعينى الفـــــرقد ين وانـــــه مــــا ان يـــرانى
لا تــــدرين لـــك أوبـــة حتى يئـــوب القـــــارظـان
هـــــل ثـم الا المـــوت فـــر دا لا تــــكون الميتتـــــان

ثم يزجى الشاعر الرمادى حسراته وأناته الى مالكة فيقول :

قولوا لمن أخـذ الفؤاد مســـلما يمنن عـــلى برده مصـــدوعا
العبـــد قد يعصى وأحلف اننى ما كنت الا ســـامعا ومطيعـــا
مولاى يحيا فى حياة كاســـمه وأنا أموت صبابة وولوعـــا(١)
لا تنكروا غيث الدموع فكل مـــا ينحل من جسمى يكون دموعـــا

وكان الشاعر الرمادى الى جانب هذا يضيف الى الخيال العربى آفاقا جديدة ومعانى رقيقة لم يألفها العرب من قبل . اسمعه يقول :

قبله قـــــدام قسيســــــة شربت كاســـات بتقديســــه
يقـــرع قلبى عنـــد ذكـرى له فى فرط شـــوقى قرع ناقوسه

بل اسمعه يقول كما يقول لامارتين الشـــاعر الفرنسى الرومانسى الرائع « اننى أغنى يا أصدقائى كما يتنفس الانسان ويغرد الطائر وتتنسم الريح ويهدر الماء :

أيهـا اللائمى على الحب مهـــلا هل تلام الحمــــام فى التغريد ؟

اننا اذا ما ذكرنا فى تاريخ الادب العـــربى بعض الشعراء العذريين العشاق كجميل بثينة ، وقيس ــ ليلى ، وعروة ــ عفراء وغيرهم فاننـــا

---

(١) أى حياة حلوة كاسمها اذ أحيانا كانت تدعى بالاسم (حلوة)

أيضا نذكر الرمادى الذى تيم بحب خولة وأنشد فيها قصائد رائعة وقلائد لامعة فى صدر الادب العربي وان سقطت من جيد الادب وتنثر بعضها فى بطون الكتب العربية التى فى مصر كنفح الطيب وذخيرة ابن بسام ومطمح الانفس وياقوت الحموى ودائرة المعارف الاسلامية ، وانتقل البعض الآخر الى برلين حيث احتبس فى غار قصى ..

كان الشاعر الرمادى يحب خولة كما كان ابن زيدون يحب ولادة ، وكان سجينا لأسباب سياسية كما كان ابن زيدون كذلك .

وجملة القول أنهما كانا شاعرين رائعين من طراز واحد وأفق واسع، وخيال سبوح ولكن شعر يوسف بن هرون حملته أيدى المستشرقين الى برلين وأقصته القذائف والحمم الى غار قصى مكين فليت شعرى من يحرر الشعر السجين ؟

المنفلوطي

قلما تذهب الى مدرسة من المدارس أو معهد من المعاهد الا وتشاهد فتاة أو فتى عاكفا على أحد كتب المنفلوطي يقرؤه مرة ومرة حتى يكاد يلتهمه التهاما ويستعير أحد الطلاب أحد كتب المنفلوطي من كتب معهده حتى اذا ما خلا الى نفسه أخذ يقرؤه ويستوعبه ويستلهم معاني الحب النبيل من كلماته وصور الفضيلة القذة من صوره ٠

وتلك هي منزلة المنفلوطي في صدور الشباب كما كانت منزلته في الجيل الماضي ٠ بل ان منزلته في الجيل الماضي كانت تعدل منزلته اليوم عشرات المرات ٠ كان مجرد ذكر اسم المنفلوطي معناه عملاق الادب العربي ورسول البلاغة ومبدع البيان ٠

نشأ المنفلوطي في بيت عرف بالورع والتقى والدين والعلم ، ولما تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفد الى الازهر كما كان يفد طلاب العلم اليه ٠ وكما وفد اليه سعد زغلول والزيات وطه حسين وغيرهم من أقطاب الادب العربي الحديث ٠

وقد تفتحت مواهب المنفلوطي وهو لا يزال في ريعان العمر على نظم الشعر فنظم قصيدة غزلية وهو في السادسة عشرة من عمره يشكو حرق الغرام وآلام الجوى والسهاد ٠

وقد كان المنفلوطي يذكر هذه القصيدة لاصحابه في خفية واحتراس ولكن سرها عرف عند أساتذته ، فطلبوا اليه انشادها ، فأنشدها لهم وهو يتبلل من الخجل وطلب منه أحد أساتذته المتمكنين في اللغة والأدب أن ينطلق في ميدان الشعر والادب ، فلابد للزهرة أن تتفتح عن كمها ولابد للعطر أن يفوح منها فيعبق الاجواء ٠

واتصل المنفلوطي بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وظل يحضر مجالسه حتى استوفى أنفاسه عام ١٩٠٥ وقد أفسح الشيخ محمد عبده من مجلسه للمنفلوطي وشجعه على الكتابة في الصحف والاتصال بالرأي العام ٠

ولم يلبث أن بزغ نجم المنفلوطي على صفحات المؤيد وهي تلك الجريدة التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف ومضى يكتب أسبوعياته ويسجل فيها كل ما يعن له من خواطر وما يضطرب في قلبه من أحاسيس وقد جمع بعد ذلك هذه الاسبوعيات في كتاب أطلق عليه « النظرات » ٠

وقد قام المنفلوطي بتعليم الشباب الحب العفيف بما دبجته يراعته من قصص نقلها عن الأدب الأوروبي مثل قصة « ماجدولين » التي ألفها الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » « والفضيلة » « وفي سبيل التاج » للكاتب الفرنسي « فرانسوا كوبيه » .

وما أعمق ذلك الحب الذي نشأ بين بطلي قصة « ماجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » فاذا الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف واذا كل سطر يسطره المنفلوطي في هذه القصة يحمل أروع معاني الحب فاذا كان الربيع فصل الحب فتأنس النفوس وتقترب القلوب من القلوب وتمتلىء الحدائق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الاغصان وجماعات الناس سانحة بين صفوف الاشجار فان المحبين لا يرتاحون لما الم بهم من فراق ويذكرون تلك السعادة التي عصروا أغصانها وجنوا ثمارها ويحنون اليها حنين الليل الى مطلع الفجر والجدب الى المطر .

وفي « ماجدولين » رسم لنا المنفلوطي علاقة المرأة بالرجل ، فالرجل يراها أداته الخاصة التي لا حق لانسان غيره في التمتع بها بأي وجه ويرى أن حقا عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، فيغار عليها من النظرة واللفتة وكلمة الاستحسان وكلمة الاعجاب ، ويخيل اليه أن الناظرين اليها والمحتفلين بها والمتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها انما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم الى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعا .

أما المرأة فتنظر الى الرجل الذي تحبه نظرها الى حليتها التي تلبسها وتعتز بها وتزهو بها على أترابها فلا أوقع في نفسها ولا أشهى الى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه : انه رجل عظيم والنساء يقلن عنه ، انه فتى جميل ، فهي تحبه لخيلائها وكبريائها أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها وترى في اعجاب المعجبين وافتتان المفتتنات بحسنه وجماله اعترافا منهم بحسن حظها وسطوع نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها وهذا كل ما يعنيها من شئون حياتها .

وقد بين لنا المنفلوطي في هذه القصة أيضا الغيرة وأثرها في النفوس وهي من الحالات التي تصاحب الحب : فاستيفان عندما وجد ماجدولين مع قريبها أرشميد غار وولى وجهه عنهما وتلهى بالنظر الى بعض الشجرات والزهرات وأخذ يترقبهما من مكمنه حتى اذا ما هبط الليل من أمام غرفة «ماجدولين» فسمعها تتحدث مع أرشميد ولم تلبث أن انطلقت تغني غناء شجيا لذيذا غير أن أذنا غير أذنه تزاحمه على سماعه حتى خرجت تودعه في غلالة رقيقة بيضاء فشرع ينظر اليها من بعيد فلما عادت الى الغرفة وأغلقت الباب وراءها ظل راكعا أمام بابها يرسل آهاته وزفراته .

وفي قصة « الفضيلة » أو « بول وفرجيني » يصور لنا الاخلاص في أوجه بين بطلي القصة في احدى الجزر التي في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة مدغشقر وعلى مدى غير بعيد من جزائر سيشل وهي جزيرة

مقفرة لا تجد فيها أحدا الا قليلا من السكان السود متفرقين فى جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من الاوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم فى حراثة الارض واستنباتها واستخراج معادنها ، وتقليم أشجارهما كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين فى جميع الأصقاع التى يعيشون بها ٠

وقد انتهت القصة بموت فرجينى وموت بول وهو جاثم على قبرها وقد ضم الى صدره صورة القديس بول وانتهت بموتهما المأساة فدفنا معا بعد ان خلدا أروع معانى الحب ٠

تأمله وهو يقول مناجيا حبيبته :

انك كل شيء لى يا فرجينى ، انك حياتي التى لا أستطيع أن أعيش بدونها ، بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة ٠ ان زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وأن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وان ماء الحسن الذى يجول فى أديمك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان ٠ اسمع صوتك الذى هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد ، فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدى فى يدك فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور وما أنا بخائف ولا مذعور ٠

أما قصة « فى سبيل التاج » التى ألفها « فرانسوا كوبيه » ذلك الشاعر الذى عرك صروف الزمان وجس باصبعه مصائب الانسان حتى لقبه عارفوه «معزى المكدودين والبؤساء وشاعر الضعفاء والمحزونين » فقد صور فيها مؤلفها الصراع بين حب الاسرة وحب الوطن فضحى بالعاطفة الأولى فداء الأخرى ، ثم ضحى بحياته فداء لشرف الأسرة وفيها أصبحت ميلتزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه ، اذ وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البريئة التى طالما نشدها قبل اليوم ووجد فى صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذى بكاه وندبه ندبا شديدا يوم ماتت أمه ويوم تولى عنه حنان أبيه ، فكأن يتحدث اليها فى كل شيء من شئون الحياة دقيقها وجليلها ويفضى اليها بكل خبيئة من خبايا نفسها ، هذه المعانى الرفيعة من الحب هى التى بثها المنفلوطى فى ترجماته ومقالاته ، وكان يعتقد أن الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة سواء كان ذلك فى المحسوسات أو فى المعقولات وفى الحقائق أو الخيالات ، وما كان الوجه الجميل جميلا الا للتناسب بين أجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسق بين أزهار الروض ما هامت به الشعراء ٠

وقد لاقى المنفلوطى ربه عام ١٩٢٤ ، ففقد الادب العربى بوفاته ركنا ركينا من أركانه ، ولكنه ترك طائفة من الابناء لا يزالون يحملون رسالته ويعتقدون أنه بحق عملاق الادب الحديث ٠

عبد الحليم المصرى
الشاعر المنسى

هذا شاعر جيد الصياغة ، واسع الخيال ، حلو المعانى بيد أنه لم يظفر باهتمام النقد فى الادب العربى مثلما ظفر أقرانه من الشعراء • وقد كان شاعرا من طراز البارودى جمع بين السيف والقلم من ناحية ، وبين الرغبة فى اعادة الشعر الى مجده الاول ، وعصوره الزاهية فى الادب العربى القديم من ناحية أخرى • فسار على منواله ونهــج على غراره • وجدير بنا أن نستعرض شيئا من حياته وطرفا من شعره •

ولد عبد الحليم المصرى فى مايو عام ١٨٨٧ بناحية «فيشى» من أعمال دمنهور ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية التحق بالكلية الحربية التى تخرج فيها عام ١٩٠٦ ، والحق عقب تخرجه بالأورطة السادسة عشرة المشـــاة فى كسلا •

وقد جمع عبد الحليم المصرى بين طبيعة رب السيف ورب القلم ، فتراه حينا يتدفق حماسة ووطنية ويشتعل بالنخوة العسكرية ، ويصف المعارك والحروب ، ويفخر بجواده ، وحسامه ، ويزهو بشجاعته واقدامه وتراه حينا صبا مستهاما ، ومحبا هائما يتيه فى بحر الحب ، ويخب فى بيداء الغرام ، فاذا بالبحر الصاخب المضطرب أمام بصره — صفحة هادئة وادعة ناعسة ينسكب فوقها ضوء القمر وينساب عليها زورق العشـــاق واذا بالصحراء المتقدة جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الانهار •

والتقى عبد الحليم المصرى فى السودان عند خور الجاش بالقــرب من كسلا بغادة هيفاء أخذ يبثها شوقه ، ويفصح لهـا عن حبه فى أبيات عذبة من الشعر :

لا ترشدينى وخلى الشوق يهدينى ... لعل يد نيهمو ما كان يقصـــينى
وسائلى الخيل عنى وهى شـاردة ... فى مهجة النقع أرويهـا وتروينى
لا تسقنى الماء اذ يجرى وبى ظمـأ ... عـــلى يديك فليس الماء يروينى
لى فى ربى النيل رئم كدت أعبده ... فى شرعة الحب لولا شرعة الدين

ويعتبر الشعر الذى نظمه عبد الحليم المصرى فى أكناف السودان من أصدق الحنين وأعذب شعر الشوق فى الادب العـــــربى الحديث لما تضمنه من اخلاص فى الاحساس ، وصدق فى التعبير ، وقوة فى العاطفة ، واشراق فى الديباجة ، وعذوبة فى الاســـلوب • وهو فى هذا الباب يشبه شاعر النيل (حافظ ابراهيم) الذى سافر فى بعثة عسكرية الى السودان

فلم يحالفه الحظ وجانبه التوفيق ، واتهم بالتمرد والعصيان ، فكتب رسالة بليغة الى الاستاذ الامام محمد عبده متمنيا ان تنحسر عنه هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة وينظر اليه نظرة ترفعه من ذات الصدع الى ذات الرجع وترده الى وكره الذى درج فيه رد الشمس قطرة المزن الى أصلها ، ورد الوفى الامانات الى أهلها ، كما نظم قصيدة بائية يصور فيها شوقه الى مهبط رأسه بعد ما آب بخيبة بعد اغتراب ٠

ولكن عبد الحليم المصرى يختلف عن حافظ ابراهيم فى موضوع هذا الشوق ٠ حافظ كان رجلا ساخطا متبرما ، ضائقا متهالكا ، أما عبد الحليم المصرى فلم تخالط شوقه الكآبة أو الحزن ، ولم يمازج حنينه هذا اللون من القتام أو يهيمن عليه هذا الظلام ، انما كان حنينه مشرقا باسما برغم ما يكتنفه من شوق لجوج ولهفة عارمة ٠

ونظم عبد الحليم المصرى قصيدة بعنوان « شاعر يسلو» حاول أن يسجل فيها بعده عن الغيد الملاح ، ونفوره من الكواعب الحسان ، وصموده أمام سحرهن وبهائهن ، ولكنه عاد فى ختام القصيدة يشدو بذكرياته ، ويترنم بأنغام الحب القديم :

من مبلغ الغيد عنى قصة عجبا	تبكى وتضحك منها الغيد فى حين
أنى سلوت فلا هجر فيهدمنى	به الغرام ولا وصل فيثنينى
فلتلبس الغيد من نسج الضحى حللا	ولتعلم اليوم انى غير مفتون
وليمتع النفس غيرى فى خمائلها	وليقطف الورد من تلك البساتين
تلك الغصون وكم لويتها بيدى	وبت أحصى جناها بالموازين
حين المحبة تحت الكرم ترضعنا	والسحب ترضع أولاد الرياحين

وفى بعض القصائد الاخرى نجد عبد الحليم تعاوده نخوته العربية وتتمثل فيه حميته العسكرية ، فهو لا يسمع بصراع أهل طرابلس مع الايطاليين حتى يبدى رغبته فى الرحيل الى هناك للاشتراك فى المعارك الحامية الوطيس الدائرة الرحى فى تلك البقاع ، وتهب به دعوة القومية العربية المتأصلة الاسس العميقة الجذور منذ أبعد الحقب والازمان ، فينهض مخاطبا السلطان عبد الحميد :

بالصيف بالرمح بالقرطاس بالقلم	صونوا حمى الملك واحموا حوزة العلم
يا صاحب التاج هذى أمة بدأت	تدنس الارض فاغسل أرضها بدم
فى الشرق جند اذا ناديت عن كثب	عدا اليك على جن بلا لجم

وعبد الحليم المصرى لا يوجه هذه الابيات الى عبد الحميد تقربا الى السلطان أو تمسحا بالابواب أو تزيفا الى الاعتاب ، انما يوجه اليه هذه الابيات ليقطع دابر الظلم والطغيان ويهدم صروح البغى والعدوان ، وهو قبل ذلك كله وبعد هذا كله صاحب السيف القوى البتار الذى لا ترهبه سطوة السلاطين أو يهزه جاه الملوك والاقيال وفى هذا المعنى يقول :

ألم تهـــزك أشـــعار ولى · اذا جرى هزتيجـــان السـلاطين

وصارم فى الوغى لوهجته انبعثت له المقادير بين الكاف والنـــون

كما قال متشبها بقول أبى الطيب المتنبى :

الخيــل والليــل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس القلم

قال عبد الحليم هذا البيت :

قلبى ثيابى ســـــطوتى عمى سيفى جوادى نجاتى عدتى زردى

ومع الفارق الكبير بين البيتين فانهما يتفقان فى تمجيد الفروسية واستخدام السيفوغشيان المعارك والحروب · بيد أن المتنبى كان أكثر حبكة وأسلس أسلوبا من عبد الحليم ·

وعندما أزمع عبد الحليم الرحيل الى طرابلس للاشتراك فى الحرب القائمة هناك كانت الفرحة تملأ أعطافه ، وكان الفخر يختلج فى صـدره لانه سيحقق أمنية طالما جاشت فى نفسه ، وهى أمنية الجهاد فى سبيل الله ، والدفاع عن الحرية ، والمساهمة فى خدمة أبناء العروبة والاسلام الذين جمعتهم وأياه روابط وثيقة ، ووشائج متينة هيهات أن يفرقهـــا الدهر أو تمحوها أيدى الزمان ·

فيم الاقامة فى مصر وتلك ربى يضيق فيهن صدر الرحب بالرحم

لا حبـــذا رقدة بالنيل ناعمـــة وحبذا وقفة بالجيش من أمـــم

لا خير فى العيش يطويه الغنى ألما كم فرج الموت عن نفس من الألم

أستودع الله أهـــلى فى كنانتــه مستقصيا عنهم مستوصيا بهـــم

ولما اصطدم الفريقان انتصرت جيوش العرب ، وصفق الاحرار لهذا الظفر المبين ، ودقت الطبول فى كل مكان ، وسرت الفرحة على كل لسان ، ونظم عبد الحليم قصيدة فى أفراح النصر جاء فيها :

السيف يصنع مالا تصنع الكتب لا الحرب قول ولا صدق الظباكذب

تخرص القوم فى الهيجاء وارتعدت فرائص هد من أركانهـــا اللجب

ومنتهى القـــول أن الحرب قائمة العرب نار لهـــا أعـداؤهم حطب

وغير خاف أن عبد الحليم المصرى حاول أن يستمد بعض المعانى من أبى تمام من قصيدته المشهورة فى فتح عمورية وينحو منحاه فى التأنق والزينة والزخرف ·

وهذه الظاهرة تدلنا على أنه كان كالبارودى يرجع الى الشعر القديم ليستوحى منه فنه ويستمد منه طاقته ومعانيه ، وقد تعلم من البارودى ألا يمدح الا من يؤثر ، وألا يرثى الا من يعز وألا يفاخر الا لأنه أهل فخار ، ولا يصف الحرب الا لانه خاض غمارها ، واصطلى بنارهـــا ، كما كانت

شخصية حافظ ابراهيم تمتلك جوانب نفسه امتلاكا الا أن عبد الحليم لم تمتد به الحياة طويلا فمات في يوليو عام ١٩٢٣ وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، أما حافظ فقد امتد به العمر الى يوليو عام ١٩٣٢ فتوفى وهو في الواحدة والستين •

أما شخصية أحمد شوقى أمير الشعراء فقد كان عبد الحليم يكبرها أعظم الاكبار ، وكانت تنزل من قلبه في أعز مكان ، وكان يقارض أمير الشعراء الثناء :

قربتنى حتى اذا استحوزتنى ... أكبرت منزلتى بصدر المحفل
ولبثت تجرى في سمعاعى صافيا ... من ماء شعرك كالرحيق السلسل
فتغض طرفك تارة عن عثرتى ... وتقيلها طورا بغير تدلل
فاذا تبنيت امرأ فأنا الذى ... يرعى الأبوة في الزمان الحول

وكان لكرمة ابن هانىء أثر كبير في نهضة الشعر العربى الحديث حيث كان يلم بها الشعراء والكتاب والفنانون من كل مكان ، وكان أحمد شوقى صاحب هذه الكرمة يفسح لهم من مجلسه ويتجاذب معهم أطراف الحديث في الشعر والفن والادب ، فهذا ينشد أبياتا من الشعر ، وذاك يقص نادرة طريفة من ذخائر الادب العربى ، وذلك ينقل أثرا من آثار الشعراء في الغرب ، فيغمر الكرمة كلها فيض من الادب والفن ، وكان عبد الحليم من روادهذه الكرمة ويشعر بسعادة لاتدانيها سعادة فى حضور هذه الجلسات الشجيةونظم احدى قصائده بين أجوائها فقال :

شربت سبعا من هوى صاحبى ... هن من الخمر سبع مثان
ثم استقى مثلى فصرنا معا ... كأننا بين قطابا زيان
نخترق المجلس من سكرنا ... آنا ونجرى في نواحيه « آن »
كأنما المجلس بحر طما ... ونحن في لجته زورقان
في كرمة الملك التى خلتها ... كأنها بعض معانى ابن هانى
قصيدة الروض وبيت الندى ... وحكمة الحسن وحسن المعان
يزدحم السعد عليها كما ... يزدحم النور على الزبرقان
أقصر « شيرين » بسكانه ... أم هذه عدن بحور الجنان
وعرش بلقيس بها قائم ... وتاج بوران مع الصولجان
أم منزل النعمان بين الحمى ... أم سر من رابين تلك المغان
ام قصر ملك الطير في جوها ... سيدنا شوقى أمير البيان

هذه هي قصيدة عبد الحليم المصرى فى كرمة ابن هانىء وقد نظمها عند زفاف نجل أمير الشعراء في ليلة المهرجان ، وضمها سحر هذه الكرمة •

وفضلها على الأدب وأثرها فى تنمية قريحة الشعراء ، واذكاء مشاعرهم . وقد كان عبد الحليم المصرى أحد هؤلاء الشعراء الذين فتنوا بسحرهـا وترنموا بفنها ، وحاول أن ينهل من الينابيع العذبة من الشعر العربى القديم التى ارتوى منها أمير الشعراء .

وتوضح بعض قصائد عبد الحليم المصرى حنينه الى أرض الشـام العاطرة ذات التاريخ الحافل والمجد الاثيل ويتمنى أن يحيا فى رحابهـا ويعيش بين أكنافها لولا صروف الدهر وضرورات الحياة وتأدية واجبه حيال أهله وأسرته وأبنائه .

وفى ذلك يقول :

يا طائر البان أثرت الغـرام ... هل انت مثلى مغـرم يا حمام
جـددت بى دائى وغـادرتنى ... كأننى سقم بصـدر السقام
« لولا بنيـات كزغب القطـا » ... ونسوة خطبى عليها جسـام
وحب أرض طال عـودى بها ... وبعض قـوم فى رباهـا كرام
لما وضعنا الدهر رحلا بهـا ... ولا ضربنا فى رباها الخيـام
ولا نتجعنا الشـام حتى نـرى ... نضارة العيش وطيب المقـام

وقد تعرض عبد الحليم المصرى فى هذه القصيدة الى ما يلاقيه من ألم فى بلاده ، والى محاولة الغض من قيمته والاخفاء من قدرته برغم الجهـود التى يبذلها فى خدمة الادب ورفع رايته .

لاكنت لى يـا أدبى حرفـة ... ان كان من يعليك قـدرا يضـام
مصر بنا ضـاقت فما حالكم ... فى أرضكم يا شـعراء الشـام

وقد اجتمع عبد الحليم على أثر نظم هذه القصيدة ببعض الشعراء المصريين وكان بينهم الشاعر امام العبد فلما وصل الى ذكر الشـعراء فى مصر حتى نال منه الوجدان واغرورقت عيناه ، وارتد حزنه الى فؤاده بعد ان ارتسم على أسارير جبهته . فأخذ يردد هذه الابيات ويسابقه فى النطق بها لسان الدمع فنظم عبد الحليم بيتين أضافهما الى قصيدته وهما :

أصبحت لا أصبحت فى حـاله ... وهكذا أمسى صـديقى امـام
ان كان هـذا الحظ لا ينجلى ... يا دولة الشعر عليك السـلام

ومن يتأمل البيت السابق من القصيدة السابقة يلاحظ أن عبد الحليم يلجأ كعدته الى محفوظه ومقروئه من الشعر القديم فيستعير عبـارة من أبيات الحطيئة التى أنشدها فى حضرة أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب ليخلصه من سجنه المظلم (١) .

---

(١) هى « لولا بنيات كزغب القطا » وهى شطر من بيت الحطيئة :
لولا بنيات كزغب القطا : يمشين من بعض الى بعض ...

وقد رد على عبد الحليم أحد شعراء الشام فى مجلة الزهور عام ١٩١٠ ووقع قصيدته باسم ف • نصار • وجاء فيها :

يا شعراء النيـــل لا تجزعـــوا ... قد صافحتكم شـــعراء الشام
لاكنت لى ياموطنى مسكنـــــا ... ان كان فيك الحر خلقا يضـام

ورد على عبد الحليم شاعر جديد من البرازيل يدعى فايز السمعانى فقـــال :

يا بلبل الشـــعر عليك السـلام ... شـــامنا مصر ومصر الشـــام
مالك بالقطرين من منهــــــل ... ولى وراء البحر طاب المقـــام
قـــد قيـــل أن الشعر طيـــارة ... فاركب وطر فوق طباق الغمام
فالبدر مشتـــــاق لوصفـــــه ... فاقصده واضرب فى حماه الخيام
أو فاحترم غـير القريض وقل ... يا دولة الشعر عليك الســـلام

وعندما غمرت المياه قسما من هيكل أنس الوجود ، وطغت على جزء من هذا الاثر البديع المشيد على عمد فى ماء النيل بالقرب من شلال اسوان حتى بات يخشى أن يذهب أثرا بعد عين نظم الشاعر عبد الحليم المصرى قصيدة باكية بعد ما نظم شوقى قصيدته التى قال فيها :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ... ممســـــكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضـا ... سابحـات به وأبدين بضـــا

وجاء فى قصيدة عبد الحليم :

وقف عليك دموعى أيهـا الطلل ... عينى اليك وقلبى للألى رحلـوا
أرســلت بالعين فى سقياك هامية ... وفى الطبول البوالى ترســل المقل
يا أيهـــا الطلل المزور جانبـه ... هون عليك كلانا بعـدهم طلل
وقفت بليـــم رسما لاحراك به ... واليم مضطرب والموج مقتتـــل
الدهر مل وآى الدهر كامنـــــة ... فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل

ومن أروع ما نظم عبـد الحليم فى الغزل هذان البيتـــان اللذان يسيلان رقة وعذوبة ويتدفقان حلاوة وطلاوة :

غرســت هواك فى قلبى ربيعـــا ... فشب وشـــبت فى زمن قريب
فمـــا أنا راجع زمن التصـــابى ... ولا هـــو بالغ زمن المشيـــب

كما قال فى وقفة بينه وبين المحبوب :

ولما استترنا بالظـــلام عن الورى ... ولم نستطيع ستراعن الدمع والعتب
تنـكرنى عزمى وغابت فصـــاحتى ... فأنطلقهـــا صمتى وشجعها رعبى

كما نظم عبد الحليم المصري قصيدة رائعة يذكر فيها أيام طفولته ، ومرابع حبه ومراتع صباه فقال :

طوت عهود الصبا في القصر ... وشوبت صفوهن بالكدر
طفولتي أين أنت من زمن ... وأين ليل الغرام من سمر
طفولتي ردك الزمان وكم ... أعطى ورد الزمان من أثر
طفولتي هل اذا ذكرتك بالدمع ... تفيد الدموع في الذكر
يرحم الله منك ماضية ... من الليالي مضت مع السير
زمان كانت فلانة معنا ... درة تجتلى من الدرر
زمان كان الهوى لعهدك بي ... رضيع ثدى الآصال والبكر

ولا يبرح الشاعر حتى يذكر لهوه ومرحه مع الفتيات وهو غر صغير لا يحمل من هموم الحياة شيئا ولا يحتفظ من أوقارها بشيء فيقول :

أين نداء البنات ياولد ... يمزجن جد المقال بالهذر
وهن مثل القطا اذا انتثرت ... يلقطن حب القلوب في السحر
تمشي التي لا اسمها بمنكشف ... عندي ولا حبها بمستتر
مشي غزال النقا اذا طرحت ... عليه اجدى حبائل النظر
خضباء من دمعها على زمن ... كأنه درتين في نهر
تكاد في العين من ملاحتها ... تنزل في العين منزل الحور

ويختتم الشاعر قصيدته بالشكوى من الحب ، وناره ، والغرام وأواره فيقول في دمع هتون :

آه من الحب لا رماك به الله ... فان المحب في سعر
فاختبر أمره على حذر ... منه فليس العيان كالخبر
يا ويلتا عليك يا كبدي ... من حاكم جائر ومقتدر
لقد جهلنا الغرام في الصغر ... وهل عرفنا الغرام في الكبر
أخاطر في الرءوس منبعث ... شعاعه في النفوس بالشرر
وهاجس جاعل مطاوعه ... بين الورى سخرة من السخر
وحاجة كل أمرها عجب ... منوطة بالبكاء والسهر
طلاسم تلك لست أعرف من ... يحلها غير فاطر البشر

ولا يلبث هذا الشاعر الذي يذوب ولها وتدلها أن يبدو بطلا يتدفق حماسه وشهامة في قصيدته الشرق والغرب ، ويهيب بأبناء الشرق أن ينفضوا عنهم السبات :

يا نفوسا فى ربى النيل رأت عزها فى عز هاتيك الربى
رائحات كل يوم برضا غاديات كل يوم بنبا
كلما طار صدى ما بينها هب الناس اليه موكبا
كلأ الله رجالا كلئوا أرضهم حتى قضوا ما وجبا
حاول الجبار أن يقرأها فرأى فى كل حرف عقربا
فبكى كالطفل عينا وفما وطواها فضحكنا عجبا

ثم لا يلبث ان يهدد الغرب الذى يتغرفاه لينهش الشرق الجميل فيقول متوعدا مهددا :

ويك يا غرب اتق الشرق فلم تحتمل غيظ حليم غضبا
قوة كالنار لو جاوزها نفس المطفيء زادت لهبا
أو كأمواه ترامت من عل كلما صودرن زادت صببا
كم قلوب يتمارضن هوى لترى من قد سلا مما صبا
ضيعة كانت فولت فانثنت كم ضياع ردت لمن سلبا

وكأنما يخاطب الشاعر أبناء العروبة عبر السنوات الخالية فيقول مثيرا الحمية موقدا شعلة الوطنية :

يا رجالا لفتوا الدهر لهم فمتى أملوا عليه كتبا
رب قول فى دم المرء جرى وحسام فى يد المرء نبا
لاسقى الغيث ثرى مصر اذا هو لم ينبت رجالا نجبا
انفسا طابوا وقروا أعينا وعلا زادوا وطالوا حسبا

تلك هى صفحة مطوية من حياة عبد الحليم المصرى الشاعر المنسى الذى أسهم فى الحركة الادبية فى أواخر القرن الماضي ، ونحو الربع الاول من القرن العشرين وجمع بين حدة السيف ، وبراعة القلم .

أحمد امين

أديب كبير ، وعالم جليل ، ولد بالقاهرة فى الاول من أكتوبر عام ١٨٨٦ وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة ، وبمدرسة والدة عباس الاول الابتدائية المسماة الآن بنبا قادن ، ثم الازهر ثم مدرسة القضاء الشرعى فنال العالمية منها عام ١٩١١ .

ثم عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى فى السنة نفسها الى سنة ١٩١٣ فعين قاضيا فى محكمة أسيوط الشرعية ، ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجية ، وبقى بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء الى عام ١٩٢١ ، فعين قاضيا فى محكمة طنطا ، وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية ، ثم انتقل الى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية ، ثم انتدب لمحكمة الازبكية ، وظل بها الى عام ١٩٢٦ ثم عين مدرسا بكلية الآداب بجامعة القاهرة فأستاذا مساعدا فأستاذا الى أن أحيل الى المعاش فى الاول من أكتوبر عام ١٩٤٦ وفى الاول من يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

ونال الدكتوراه الفخرية فى ١٥ من فبراير عام ١٩٤٨ من جامعة القاهرة تقديرا للخدمات التى أداها للكلية .

كما نال جائزة الدولة وعين مديرا لادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم واختير عضوا للمجلس الأعلى لدار الكتب وأستاذا غير متفرغ بكلية الاداب بجامعة القاهرة . وسطع نجمه فى الصحافة الادبية عام ١٩٣٤ فى الرسالة والثقافة وكان مديرا لها ثم مجلات دار الهلال ، وكذلك تألق نجمه بالاذاعة المصرية والاذاعات العربية الاخرى .

وتوفى فى يوم الاحد الموافق ٣٠ من مايو عام ١٩٥٤ وأطلق اسمه على أحد شوارع مصر الجديدة ، وخصصت جائزة باسمه لأول الحائزين على ليسانس الآداب فى قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة كل عام ، وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه .

ومكتبة أحمد أمين الآن فى احدى قاعات المؤتمر الاسلامى تحمل اسمه .

وقد وصف الدكتور أحمد أمين فى كتابه « حياتى » دراسته الأولى فى كثير من الصراحة فحكى حياته الأولى فى الكتاب دون كذب ودون رياء ، وقصة تعليمه بالازهر ، ومدرسة القضاء الشرعى ، وروى قصة تعيينه مدرسا فى احدى مدارس الاوقاف بالاسكندرية بمرتب أربعة جنيهات وهو فى الثامنة عشر من عمره ، وقد سافر الى هناك فرأى البحر

لاول مرة في حياته وجلس اليه وآنس به ، واستأجر حجرة في بيت بالقرب من مسجد البوصيري أودعها فرشه وملابسه وكتبه ودراهمه ، ثم عاد يوما من المدرسة فوجدها قاعا صفصفا ، خالية كيوم استأجرها فاتفق مع مدرس في مدرسة أخرى أن يستأجر معه شقة من غرفتين في بيت عليه بواب ، وكان صاحبه رجلا كهلا نحيف الجسم ، أصفر الوجه ملتحيا ، متدينا في تزمت ٠

وعند ما أراد الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي كان يخاف نتيجة الكشف الطبي لضعف بصره ٠

وفي مدرسة القضاء الشرعي تلقى الدروس على الشيخ الخضرى والشيخ المهدى ، وهما من فئة تعودت النظام والقدرة على الايضاح ولم تلتزم عبارات الكتب وان التزمت موضوعاتها ، واتصلت بالشيخ محمد عبده ، وكانت من خاصة تلاميذه ، تعتنق مبادئه وتستنير بآرائه وتوجيهاته :

فدرس له أصول الفقه الشيخ محمد الخضرى وكان لبقا لسنا ذكيا واسع الاطلاع ، يجيد اللغة العربية وفروعها ، والتاريخ الاسلامى ، ودرس له الشيخ محمد المهدى آداب اللغة العربية وكان هذا الادب حديث العهد في مصر ، فالناس لم يكونوا يعرفون الاداب الا على النحو الذى جاء في مثل كتاب الاغانى والعقد الفريد والامالى ونحو ذلك ٠

ودرس له في مدرسة القضاء الشرعي كذلك الشيخ محمد زيد وهو رجل وقور تمرن على التدريس بمدرسة الحقوق فنقل القصة من كتب الازهر الى صورة مستحدثة ودرس له جمهرة من المدنيين منهم على بك فوزى الذى درس فى مدرسة المعلمين وتخرج في معاهد انجلترا وكان يلقى عليه دروسا في تاريخ اليونان والرومان أحيانا وتاريخ أوربا الحديث أحيانا والتاريخ الاسلامي أحيانا ، واحمد فهمى العمروسى بك وهو الذى تعلم فى مصر وتعلم فى سانلكو بفرنسا ، وكان يدرس له الطبيعة ٠

ودرس له عاطف بركات علم الاخلاق من المصادر الاوربية ، وكان يرجع الى كتاب ماكنزى في علم الاخلاق وأحيانا كتاب مذهب المنفعة لجون ستيوارت ميل ٠

وكان من أصدقائه العالم الكبير الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق وكان شابا تقدميا يقضى معه أغلب لياليه في سمر شجى لذيذ ٠

واتصل أحمد أمين بالجامعة الاهلية وحضر بعض دروسها ورأى فيها لونا من الوان التعليم لم يكن يعرفه من حيث الاستقصاء في البحث ، والتعمق فى الدرس والصبر على الرجوع الى المراجع المختلفة ، ومقارنة ما يقوله العرب وما يقوله الفرنج ، واستنتاج هادىء رزين من كل ذلك ٠

وأعجبه من دروسها محاضرات يلقيها الاستاذ نللينو في تاريخ الفلك ، عند العرب ، ومحاضرات في الفلسفة الاسلامية يلقيها الاستاذ سانتلانا ٠

وقد تعلم أحمد أمين اللغة الانجليزية في مدرسة ليلية (تسمى برليتز) وذهب الى المدرسة ورتب دروسا ثلاثة في الاسبوع بمائة وخمسين

قرشا لكل شهر ، واشترى الكتاب الاول ، وتولت تعليمه سيدة انجليزية تحسن الانجليزية لانها انجليزية وان لم تكن مثقفة الا الثقافة الضرورية ، غير أنه بذل جهدا كبيرا فى اتقان اللغة فكان يحفظ فى الطريق ويقرأ فى البيت ويستذكر اذا كان مراقبا فى الامتحان أو مشرفا على حصة العاب رياضية وما الى ذلك •

ثم رجع الى أحد الكتب عن الاسلام ليقرأه بالانجليزية وكان بقلم السيد أمير على فصعب عليه المضى فى القراءة ، فعاد مرة أخرى الى اتقان اللغة وتلقى الانجليزية على يد (مس يور) ثم على سيدة انجليزية أخرى فى ريعان الشباب تعيش مع زوجها الانجليزى المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة ارستقراطية فخمة ، وكان يقضى ساعتين فى الدرس معها مرتين فى الاسبوع ، ساعة تعلمه الانجليزية وساعة يعلمها هو العربية•

ومن الطريف ان الدكتور (أحمد أمين) يحكى فى كتاب « حياتى » صفحات صريحة عن شبابه فيروى أنه صادف عناء كبيرا فى الزواج فكلما دله صديق على فتاة يراها فاما أن يجد مانعا منها أو تجد هى مانعا منه • فما يرضيه لايرضيها ، وما يرضيها لايرضيه ، وأخيرا دله مدرس فى مدرسة القضاء على بيت رضيه ورضى البيت به فأرسل أمه وأخته وزوجة الاستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها ، وأخيرا رآها وتم عقد الزواج فى ٣ من أبريل عام ١٩١٦ وقد أخذ يوم العقد مائة جنيه انجليزية ذهبية فى علبة جميلة قدمها مهرا للزوجة وانتظر نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الجهاز •

وأطرف من هذا أن الدكتور أحمد أمين يقول : انه كان من رأيه الاقتصار على ولد أو ولدين شعورا بمسئولية التربية وتوفيرا للزمن الذى يحتاج اليه فى التحصيل والدرس وتمشيا مع النظرة التى يراها وهى أن الامة المصرية مكتظة بالسكان ، ولكن زوجته كانت لا ترى هذا الرأى ، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور « قصيه لئلا يطير » •

وفى ١٩١٤ أسس أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها حتى يوم وفاته •

ودق جرس التليفون يوما بمنزله فى مصر الجديدة وهو قاضى بمحكمة الازبكية عام ١٩٢٦ واذا المتكلم صديقه طه حسين يطلب مقابلته وذهب لمقابلته فاذا هو يعرض عليه أن يكون مدرسا بكلية الاداب ، فتردد قليلا ثم قبل لنفوره من القضاء وحبه للتدريس وذهب الى الكلية لاول مرة حيث قصر الزعفران الآن •

ومن ذلك الوقت هيأت له الجامعة رحلات خارج القطر ، وكان شبابه قد أوشك أن ينقضى وهو لم يبرح القاهرة الا حين عين مدرسا بطنطا والاسكندرية أو مدرسا فى الواحات ، فسافر أحمد أمين الى أوروبا وزار باريس ، والاستانة ، ثم زار بغداد وطاف بالعراق وغيرها من بلاد الشرق العربى •

وأقام بانجلترا نحو أربعين يوما ،وحضر مؤتمر المستشرقين فى لندن ، كما ذهب الى مؤتمر المستشرقين فى بروكسل ببلجيكا ، وزار ايطاليا ،

وسويسرا حيث أقام عدة أيام فى مدينة لوسرن ورأى بحيرتها ، واستمتع فيها بجمال مناظرها الطبيعية الباهرة ·

وطاف باحدى القرى التى على البحيرة واسمها (كيرستين) مع صديقه الدكتور عبد الوها بعزام ·

وكان أحمد أمين دائم الاطلاع ، لايميل الى الاجتماع كثيرا ولا يحب يوما يمر عليه دون أن يخلو فيه الى نفسه ، بعيدا حتى عن أولاده وأهله ، وكان يستمر فى القراءة الى نحو الحادية عشرة فينام ، وقد وضع مصباحا كهربيا بجوار سريره يقرأ عليه حتى يغشيه النوم ·

وكان فى بدء حياته العلمية كثير الفراغ ، يصرفه فى القراءة والكتابة · فألف فجر الاسلام وضحاه ، ثم قل فراغه باشتغاله بكثرة المجالس واللجان ، وكان يحس بنزعة صوفية غامضة ويشعر فى بعض اللحظات بعاطفة دينية تملأ نفسه وتهز قلبه ، وأكثر ما يتجلى هذا الشعور عند شهود المناظر الطبيعية الرائعة ، كالمزارع الواسعة والاشجار اليانعة ، وطلوع الشمس وغروبها ، والبحار وأمواجها والطيور وتغريدها ·

وكان من عادته فى يوم الجمعة أن يذهب الى حلوان أو الاهرام أو القناطر الخيرية أو نحو ذلك لينسى القراءة والكتابة ، وكان يصيف فى الاسكندرية أو رأس البر ، ولم يعتد كيفا من الكيوف الا الدخان ، كما لم يتعود أن يضيع وقته فى الجلوس الى مقهى الا لمقابلة فى عمل ،فان مال الى اجتماع بالناس فمع أصدقائه فى لجنة التأليف كما تعود الا يضيع وقته فى لعب أو نرد أو شطرنج ·

وكان شديد الخوف على سمعته الاخلاقية فيتألم أشد الألم من كلمة تنشر اذا مست خلقه ، ولكنه كان واسع الصدر جدا فيما يمس آراءه وأفكاره ، فلا يحزنه نقد كتبه ، ولا نقد آرائه ، وكانت له الشجاعة فى قول الحق والتزام الصدق ، واحتمال الحرمان من مال أو جاه ، ولكن ليس له الشجاعة فى احتمال شوكة تصيب أولاده ، أو شيء يمس شرفه ·

وكان شديد الحساسية لكلمة تمسه أو لفعل يجرحه ، ولا ينام الليل لكلمة نابية سمعها ، أو صدرت عنه فى حق صديق له ·

مزاجه الطبيعى عصبى غير عادى ، غير أن التربية هى التى خففت من حدته ، وضبطت من نفسه ·

حيى خجول يغشى المجلس ، فيتعثر فى مشيته ، ويضطرب فى حركته ، يصادف أول مقعد ليرمى بنفسه فيه ، ويجلس وقد لف الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه وتقدم له القهوة فترتعش يده ، وترتجف أعصابه وقد يدارى ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به اليها حاجة ·

وألف أحمد أمين عدة كتب هامة منها « فجر الاسلام » الذى درس فيه الحياة الجاهلية دراسة مستفيضة مدعمة بالمراجع والكتب ، وقد صدر

فجر الاسلام عام ١٩٢٩ وتبع هذا الكتاب ضحى الاسلام فى ثلاثة أجزاء ، ثم ظهر الاسلام فى أربعة أجزاء وقد طبعت أجزاؤه الاولى ست مرات ، واصبحت هذه الكتب الثلاثة من أهم المراجع التى يرجع اليها الطلاب والباحثون ٠

وقد درس فى هذه الكتب الحضارة الاسلامية دراسة واعية مع بيان العناصر المكونة لها والظروف التى أدت الى ظهورها ، فتكلم عن الناحية العقلية من هذه الحضارة ، والناحية الادبية والناحية الدينية ، وقال فى مقدمة الجزء الاول من ضحى الاسلام : « لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه وتاريخ دينها ، وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى ، أما الفكرة فاذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ؟ وكيف نمت ؟ وما العوامل فى ايجادها ؟ وما العناصر التى غذتها ؟ وما الطوارىء التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها اذا حاولت ، أعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجه الجهد ٠٠ » ٠

وتتضح من هذه الفقرة الطريقة التى استخدمها أحمد أمين فى تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى العصور الحديثة ، فى كتابه « ضحى الاسلام » ٠

أما « ظهر الاسلام » فالجزء الاول منه يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل الى آخر القرن الرابع الهجرى ٠ والجزء الثانى يبحث فى تاريخ العلوم والاداب والفنون فى القرن الرابع ، والجزء الثالث الذى طبع بعد وفاته يبحث فى الحركات الدينية المختلفة ، أما الجزء الخاص بالأندلس فيبحث فى الحياة العقلية منذ فتح العرب للاندلس حتى خروجهم منه ٠

ومن مؤلفاته أيضا « يوم الاسلام » وقد صدر عن دار المعارف بالقاهرة وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ويجلو هذا القاموس ناحية طريفة من نواحى الحياة الشعبية عند المصريين حيث أخذ يدرس تقاليدنا الشائعة فى الزواج والافراح والمآتم ، والاحزان ، وغاص الى أغوار الحياة المصرية الصميمة فى الازقة والحارات ، والقرى والحقول وصور لنا تاريخ الشعب المصرى متجليا فى عاداته وتقاليده ، تصويرا خلابا جذابا يستهوى القلوب والأفئدة ٠

ومن مؤلفاته كذلك كتاب « فيض الخاطر » وهو فى عشرة اجزاء ويضم طائفة كبيرة من المقالات التى نشرها فى الثقافة والرسالة والهلال والمقتطف وغيرها من الصحف والمجلات ، وتضم هذه المقالات دراسات أدبية وأخرى تاريخية وتراجم لبعض الشخصيات الاسلامية ومقالات نقدية وخطرات نفسية يعبر فيها أحمد أمين عما يجيش فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ٠

ومن مؤلفاته أيضا كتابه « حى بن يقظان » الذى درس فيه هذه الشخصية التاريخية المعروفة بالرحلات وجوب الافاق دراسة ممتعة مشوقة ٠

ومن كتبه أيضا كتاب النقد الادبى فى جزأين ، وقد حلل فى الجزء الاول النقد الادبي ، وبين الغرض من دراسته ، وخضوعه لقواعد خاصة واتصاله بالفلسفة ، وضرورة فهم الجو الذى ينشأ فيه المؤلف ثم بين قيمة الدراسة التاريخية فى فهم الادب وطريقة الناقد « تين » العلمية فى خضوع الادب لعناصر ثلاثة وهى الجنس والوسط والزمن ، ويعني بالجنس مايرثه الناس من المزاج والنفسية ، وبالوسط الاوساط المحيطة بهم من مناخ وبيئة طبيعية وأحوال سياسية واجتماعية ونحوها ، وبالزمن روح العصر أو روح تلك المرحلة المعينة للتطور القومي الذى وصلت اليه الامة فى ذلك العصر • ثم بين أن النقد أقرب الى الفن منه الى العلم •

ثم تحدث عن عناصر الادب من عاطفة ومعنى وأسلوب وخيال وعن المقاييس التى تقدر العواطف والاشياء التى تعتمد عليها فى هذا التقدير وعن تعريف الخيال ، وقيمته فى الادب وارتباطه بالعواطف ، ثم عن المعانى وما يجب اشتراطه فيها ، وعن الادب والحياة الواقعية ، ثم عن نظم الكلام وكيف تنقل الفكرة ونعرضها •

ثم تكلم عن الشعر ، وما الذى يجب أن يتوافر فيه من شروط ، وأهم الفروق بين الشعر والنثر ، والشعر والموسيقى ، والشعر الذاتى ، والشعر الموضوعى والشعر التمثيلي حتى اذا ما انتهى من الحديث عن الشعر انتقل الى النثر فتكلم عن الملاءمة فى النثر وفائدة دراسات السير فى الادب وأقسام النثر ، وكلمات عن المقالة والقصة الطويلة والتمثيلية وما اليها من فنون النثر •

ثم درس العناصر الاساسية للأسلوب ، وتكلم عن الرواية والفرق بين القصة والرواية والمسرحية ، وأنواع الدراما ، والدراما ونقد الحياة وما الى ذلك من بحوث فنية •

ثم تكلم عن النقد وتعريفه ، وضرر النقد ، وفائدته ، ومهمته ، والنواحى التاريخية من دراسة النقد كأدب ، فاستشهادات متفرقة •

أما الجزء الآخر من الكتاب فخصصه المؤلف لتاريخ النقد عند الافرنج وعوامل انحلال الكلاسيكية الحديثة ، وشرح دور «لسنج ، وجراى ، وجان جاك روسو » فى النقد ، وبين أثر مدرسة الجماليين فى النقد والفرق بين الحركة الكلاسيكية • ثم تكلم عن نهضة النقد على يد وردزورث وكولردج فى انجلترا ، وسنت بيف وفكتور هوجو ونيزار فى فرنسا ، وجوته وشيللر فى المانيا •

ثم تحدث عن خلفاء سنت بيف فى فرنسا ، ودور كارليل وماثيو ارنولد فى توجيه النقد فى انجلترا • وتعرض لتاريخ النقد عند الاوربيين فى القرن العشرين •

كما تعرض فى هذا الجزء لتاريخ النقد عند العرب منذ الجاهلية حتى العصر العباسى •

وقد نشرت هذا الكتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٣ ويعد من أمتع الكتب التى ألفها الدكتور احمد أمين •

ومن كتبه أيضا « الصعلكة والفتـــوة في الاسلام » وقد درس فيه ناحية غير مطروقة من حياة العرب دراسة علمية منظمة وتعرض للشعراء الصعاليك الذين كان لهم دور كبير في انعاش الادب العربي واضفــــاء لون جديد من الشعر والشعور على التراث العربي القديم .

وألف كتاب « المهدى والمهدوية » و « الى ولدى » وهو مجموعة من الرسائل التى خطها يراعه فى نصح ابنه وتعتبر من أمتع الوصــــــايا الادبية التى يوجهها والد الى ابنه .

وألف أحمد أمين كتاب « هارون الرشيد » ودرس فيه شخصيةهذا الخليفة العظيم الذى جمعت شخصيته كل المتناقضات فى الدنيا فهــــو رجل ورع تقى ، يحرص على الصلاة والزكاة والصوم ، ويؤدى الفرائض ، وتدمع عيناه اذا تلا القرآن أو سمعه ، وهو بعد ذلك رجل يحب الحياة ويطرب من الغناء ، ويسر من الموسيقى ، ويجمع فى بلاطه القيان والمغنيات وينقضى عليه الليل وهو لا يزال يحيا فى هذه الاجواء المزهرة المشرقة .

فدرس الدكتور أحمد شخصيته وحللها تحليلا دقيقا فى أسلوب سهل جميل ، ودراسة علمية منظمة واستنتاجات سليمة واعية .

كما ألف الدكتور أحمد أمين كتاب « زعماء الاصـــــلاح فى العصر الحديث ، وتكلم فيه عن هؤلاء الاعلام الذين أسهموا فى بناء النهضـــــة الفكرية ، وتدعيم أسسها ، فتكلم عن رفاعة الطهطاوى والشيخ محمـــد عبده ، وعبد الله النديم وغيرهم من الاعلام .

أما كتبه بالاشتراك فهى كتاب قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكى نجيب محمود والناشر لجنة التأليف .

وكتاب قصة الادب فى العالم فى أربعة أجزاء ودرس فيه مختلف الآداب فى العالم من قديمه وحديثه ، وشرقيه وغربيه ، مع الدكتور زكى نجيب محمود والناشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

واشترك الدكتور احمد أمين فى نشر بعض الكتب القديمة ، فنشر الكتب الآتية : الامتاع ، والمؤانسة ، وديوان الحماســـــة ، والعقـــد الفريد ، والهوامل والشوامل ، وخريدة القصر وجريدة العصر .

وقام فضلا عن ذلك بترجمة كتاب مبادىء الفلسفة .

واشترك فى تأليف مجموعة من الكتب المدرسية نذكر منها المنتخب فى الادب العربى والمفصل فى الادب العــــربى ، والمطالعة التوجيهية ، وتاريخ الادب العربى .

وفى ٣٠ من مايو عام ١٩٥٤ انتقل أحمد أمين الى جوار ربه وكان على تعبير الاستاذ أحمد حسن الزيات فى أعقاب عمره « دنيا من العلم والادب فى هيكل بال من العضل والعصب »

وانفضت بموته تلك الحلقة التى كان يعقدها كل خميس بدار التأليف والترجمة والنشر ويختلف اليها أعضاء اللجنة وأصدقاؤها من العلماء والادباء ، وكان أحمد أمين واســـــطة الحلقة والرأس المنظم لما يدور بها .

من القرن الاول قبل الميلاد

كليوبترة

ان لكليوبترة يدا بيضاء على الادب ، اذ يرى المؤرخون أنها كانت تقيم في قصرها حفلات تدعواليها رجال العلموالادب ، وأنها كانت لاتدخر وسعا فى الاغداق على أهل الفن ، وقد نبغ فى عصرها كثير من مؤلفى المسرحيات والشعراء والفنانين ·

وهكذا كانت كليوبترة تخدم الأدب فى حياتها ، فلما فاضت روحها الى بارئها ، وتوارت عن هذه الدنيا ، ظلت تخدم الادب بذكراها،وأصبحت وحيا لكثير من القصصيين والشعراء وكتاب المسرح ، ولم تصبح حياة كليوبترة مقصورة على شعب من الشعوب أو بيئة من البيئات ، وانما أصبحت شخصية عالمية يستمد منها الوحى جميع الفنانين فى بقاع الارض ·

فأثرت كليوبترة فى الادب المصرى ، كما أثرت فى الأدب الانجليزى وأثرت فى الأدب الفرنسى ، كما أثرت فى غير ذلك من آداب العالم ، وكتب عنها كثير من المؤرخين الالمان والروس ، والامريكيين والهنود ·

ومن الكتاب الذين استمدوا من كليوبترة وحيا لهم فى انتاجهم الاولى فى أوربا الكاتب الفرنسى « توفيل جوتييه Theofhile Goutier» الذى كتب قصته « ليلة مع كيلوبترة » واستمد وقائعها من ناحية هذه الملكية العظيمة ، والمعروف أن جوتييه كان من أعلام الادب فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالكاتب الفرنسى الذائع الصيت بلزاك زعيم الواقعية ·

كما كتب الكاتب الفرنسى هنرى بوردو قصة أخرى عن كليوبترة بعنوان « أنف كليوبترة » وصدق فى قصته قول بسكال « لو كان أنف كليوبترة أصغر مما كان قليلا لتغير وجه العالم » ·

وكتب كلود فرفال كذلك قصة عن كليوبترة صور فيها مصرع قيصر وفجيعة كليوبترة فى موته ، وكان من المفروض أن يحتفل قيصر بزواجه منها بمجرد عودته منتصرا من حملته فى بلاد الفرس ·

وكتب الكاتب الانجليزى ريدر هيجارد قصة طويلة عن كليوبترة واستقاها من بعض لفائف أوراق البردى التى عثر عليها فى احدى المقابر التى فى ليبيا ·

كما كتب هنرى توماس بعض المذكرات عن حياة كليوبترة « والعلاقة بينها وبين كالبورنيا » زوجة قيصر ، وكانت على جانب من الذكاء والدهاء ، وكانت منافسة لها فى حب قيصر ·

وكتب المؤرخ الالمانى « آميل لودفيج» قصة حياة كليوبترة. وصور ذلك النعيم الذى استمتعت به كليوبترة بين أحضان القائد الرومانى ، وكيف حاول أن يمد شهر العسل حتى يستغرق سنوات وسنوات ، ثم أنجب توأمين من زوجته أوكتافيا غير أن كليوبترة أرادت أن تضع حجابا صفيقا وسدا منيعا بينه وبين ماضيه . وقد وجدت كليوبترة فى ذلك الجندى الخشن المحب الذى يرضى مطامعها .

وألف الكاتب المسرحي الكبير « وليم شكسبير » مسرحيته الخالدة «انطونى كليوبترة » على أساس من تاريخ بلوتارك ، وصور شكسبير فى مسرحية كليوبترة صورة رائعة ، فهى ليست امرأة هلوكا متبذلة كما صورها بعض الكتاب الغربيين انما هى ملكة قوية الشخصية شديدة الذكاء ، عميقة الدهاء ، وأنطونى رجل قوى البأس شديد المراس ، يمتاز بالعاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويحب كل الآخر حبا بالغا ، ولا يخفض هذا الحب من قدرهما ، أو يغض أو ينقص من شأنهما حتى يتنكر لهما الزمان ، وتدور عليهما عجلته .

وألف الكاتب الايرلندى الساخر « برنارد شو» مسرحية أخرى عن « قيصر وكليوبترة » وليست كليوبترة عند شو سوى فتاة صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، يقابلها « قيصر » فى حضن الصحراء وتحت ظلال أبى الهول وهو يرسل اليه نفثاته وخلجات قلبه فىأسلوب شاعرى جذاب .

وعندما أخرج برنارد شو هذه المسرحية الى الناس قال : « خذوا هذا .. انه لأقوى من شكسبير ، ولا تصدعوا رءوسنا بعد الآن بهذه المجموعة من الحكايات التى تسمونها التاريخ » .

وهذا القول يفيد أن برنارد شو لم يشأ أن يضع نفسه فى أسر التاريخ ، انما استخدم خياله ، وسخريته فى سبيل خلق مسرحية جديدة يخرج بها الى الناس .

أمير الشعراء الانجليزى

ونحب بعد هذا العرض السريع الموجز لبعض ماكتب عن كليوبترة فى الآداب الاوربية أن نعرج على مسرحيتين كبيرتين احداهما لأمير الشعراء أحمد شوقى الذى احتفلنا بذكراه ، وأخرىمسرحية أميرالشعراء الانجليزى جون دريدن (١٦٣١ – ١٧٠٠) وهو من الجيل الذى كان به شكسبير يملك ناصية الادب عن جدارة .

وقبل أن نقارن بين هاتين المرحلتين ونتعرض لشخصية كليوبترة فى كلتيهما نحب أن نقول : ان (شوقى) يتفق مع دريدن فى وجوه كثيرة من الشبه ، فكلاهما يحمل لقب أمير الشعراء وكلاهما تربى فى أكناف القصور ، واسترعت مواهبه الشعرية الخديو توفيق ، فأوفده الى أوربا ، ثم اتصل بالامير عباس وأصبح بين عشية وضحاها « شاعر العزيز » كما كان يقول .

وهكذا كان دريدن : انحدر من أسرة عريقة ومدح وهجا من أجل الملكية ، وكتب ابشالوم واكيتوفل التى تعد من أروع قصائد الهجاء فى الادب الانجليزى ، ضد شافسبرى الذى اتهم بالخيانة العظمى ، وأنتج كثيرا من المسرحيات الرائعة « كفتح غرناطة » التى منح عليها لقب أمير الشعراء ٠

ولعل الشاعرين يتفقان فى كتابة مسرحية عن كليوبترة ، وقد أطلق شوقى على مسرحيته مصرع كليوبترة كما أطلق دريدن على مسرحيته « فى سبيل الحب » أو عالم حسن ضياعه ٠ ويقول الناقد الانجليزى « سانتسبرى » ان دريدن بلغ الذروة فى هذه المسرحية ، أو كما قال كونجريف انى أجازف فأقول : انه لم يكتب أحد فى لغتنا الانجليزية فى كثرة دريدن وفى تنوع دريدن ٠ »

وشخصية كليوبترة عند شوقى شخصية امرأة جميلة باهرة الجمال ساحرة الفتنة ، تجتلب الالباب اجتلابا ، وتجتذب القلوب اجتذابا ٠ وأمام جمالها يقف دينون مدهوشا مذهولا :

يطأطىء رأسا لمجد النبوغ ويخفض رأسا لمجد الجمال

وكليوبترة كذلك عند دريدن فاتنة رائعة ، وقد وصفها دريدن وصفا يستهوى القلوب وهى تنساب على الماء فى زورقها الجميل فى هدوء وسكينة والاماء حولها من كل جانب يمسكن المراوح ليجددن أمامها الهواء ، وضوء القمر ينسكب عليها فتبدو آية فى الروعة والفتنة ، حتى ان الشيوخ عندما يقفون أمامها يرجعون سحرها الى سن الشباب ٠

وكليوبترة عند شوقى امرأة معتدة بشخصيتها ، معتدة بجمالها ، وتصف أحبابها فتقول :

يموتون عشقا ثم يشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماة

وتحمل كليوبترة عند دريدن الشعور نفسه فهى تثق فى جمالها ، وتثق فى قدرتها على أسر الرجال ٠ غير أنها فى بعض الاحيان تبدو ضعيفة كليلة لا تستطيع أن تقاوم تيار الحب ولا تقف أمام الحوادث المتلاحقة المتعاقبة ، فيعتريها السقام ويدب فى نفسها اليأس ، وتنهار نفسيتها وتنادى وصيفتيها ايراس وشارمبون حتى تسنداها مخافة ان تسقط على الارض ٠

وكليوبترة عند أحمد شوقى ملكة مخلصة لمصر تعمل جاهدة فى سبيل اسعاد وطنها ودرء العدوان عنه ، ولكنها عند دريدن تنصاع لتيار الحب وتخضع لسلطانه ، فتضحل معالم الوطنية بين أوهام المحبين

وهى عند شوقى تقول :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وتقول كذلك :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

أما دريدن فلا تلمح عنده أثر هذا الاخلاص الذى يبدو في سلوكها ولعل ذلك يرجع الى أن (شوقي) رجل يحب أن يتيه بمجد آبائه الأولين ويعرض أمجادهم للعيان واضحة جلية ، أما دريدن فلم يكن فى حاجة الى هذا كله انما جعل الحب أساسا لموضوعه أو لمأساته وشاع الحب فيها منذ البداية حتى النهاية ٠

ودريدن يجعلها امرأة تدوس كل شيء من أجل الحب ، بل انه يرسم لنا صورة لها خلال كلمات اكتافيا في ثورتها على تلك التى اغتصب زوجها من بين احضانها وأحضان أطفالها الصغار ٠

فاكتافيا تدنو من كليوبترة وتقول لها :

ـ أريد أن أراك عن كثب ، أريد أن أرى هذا الوجه الذى أخذ حقي منذ أمد طويل ٠٠ وأن أرى هذا السحر أمامي ٠٠ هذا السحر الذى لابد أن ينال الجنس البشرى رشاش منه والذى حطم مولاى العزيز

فتجيب كليوبترة : أحسنت صنعا اذ تبحثين عنه ، فلو أنكملكت نصف هذا السحر ما استطعت أن تفقدى قلبه ٠

اكتافيا ـ العلم بهذا السحر بعيد عن المرأة الرومانية ، بعيد عن الزوجة المتواضعة ، ياللخجل ألا يحمر وجهك خجلا وأنت تعترفين بهذه الكلمات الغزلية السوداء التى تجعل الخطيئة شيئا يدعو الى البهجة والسرور ٠

كليوبترة ـ قد تحمرين أنت خجلا ، أنت لاتملكين هذا السحر ٠٠ ولكن شكرا للسماء السخية التى حبتنى هذا السحر الذى بعث المسرة فى أنبل رجل ٠٠ فكيف أفخر بهذا ؟ أنا التى يحبنى وعندما لايحبنى يبدل الله وجهي من وجه كهذا الى وجه كذاك (اكتافيا) ٠

اكتافيا ـ أنت لاتحبينه حق الحب ٠

كليوبترة ـ أنا أحبه أشد منك واستحقه أكثر منك ـ أنت لاتحبينه ولا تستطيعين أن تحبينه فأنت سبب تحطيمه ٠

اكتافيا ـ من التى جعلته رخيصا فى روما غير كليوبترة ؟

من التى جعلته محتقرا فى الخارج غير كليوبترة ؟

من التى خانته فى اكتيوم غير كليوبترة ؟

من التى جعلت أطفاله أيتاما ، وجعلتنى أنا المسكينة أرملة تعسة غير كليوبترة ، وغير كليوبترة فحسب ؟

الغيرة فى العواطف

ولا نكاد نعثر فى مسرحية أحمد شوقى على هـــذا العنصر ، عنصر الآثار بالغيرة ، فهو عنصر انفرد به دريدن فى مسرحيته •

على أن (شوقى) اتفق مع دريدن فى نهاية المأساة ، واســـتخدم الأفاعى لتنفيذ مؤامرة الموت ، وجعل كليوبترة تناجى الأفاعى بعـد أن تكشف عنها فى احدى السلال فتقول :

هلمى الآن منقـــذتى هلمى وأهلا بالخلاص وقد سـعى لى
على نابيـــك من زرق المنـــايا شفاء النفس من سود الليالى
وبعض الســـم ترياق لبعض وقد يشفى العضال من العضال

أما عند دريدن فتقول لشارميون :

كليوبترة : أحضرى ياشرميون تاجى ومجوهراتى الثمينة ، وغـــار النصر ، وأنت ياايراس أحضرى الدواء من كل داء •

ايراس — الأفاعى •

كليوبترة — وهل أقول مرتين ؟ انها وسيلة جميلة الى الموت ، فأثير غضبها حتى تلدغنى وأموت !

مسرحية موضوعها الحب

وهكذا اتفق الشاعران فى هذا الواقع التاريخى ولم يحيدا عنه غير أن الشىء البارز فى مسرحية دريدن أن الحب موضوعها من أولها الى آخرها ، أما مسرحية شوقى فقد استخدم فيها بعض العناصر التاريخية وتعرض لبعض المعارك الحربية ، كمعركة اكتيوم ، ولم ينس فى الوقت نفسه الدفاع عن شخصيتها كمصرية ترغب فى الظفر والانتصار وتنادى انطونيوس بقولها: « عد ظافرا أولاتعد » على النقيض من شخصيتها عند دريدن فهى تذوب وجدا وترسل له من يخبره بأنها تريد أن تلقاه قبل الرحيل ، فهى لاتطيق فراقه ولا تتحمل البعد عنه •

ولكننا ينبغى أن نفرق بين أسلوب هاتين المسرحيتين فنقول: ان (شوقى) ألفها شعرا موزونا مقفى ، أما دريدن فقد ألفهـا شعرا حرا •• وغنى عن البيان أن نظم المسرحيات بالشعر الموزون يحد المقفى من خيال المؤلف ويقيد من أفكاره مما جعله يستخدم الاسترسال الغنائى فى مواضـــع شتى من مسرحيته •

وعلى أية حال فان مسرحية شوقى تعد من روائع أدبه المسرحى ، ومهما يوجه اليه من النقد فانه أول رائد وضع أسس الشعر التمثيـلى الراقى ، وترك لمن بعده مهمة بناء صرح عظيم البنيان ، نرجو أن يتمكن كتاب المسرح فى العصر الحديث من تشييده بأقلامهم الفتية •

من القرن الرابع قبل الميلاد

أرســـطو

لمع اسم أرسطوطاليس الفيلسوف الاغريقى القديم فى هذه الايام برغم تطاول الحقب وتباعد الأزمان بيننا وبينه ، وربما كان هذا راجعا الى تلك الترجمات الكثيرة التى أعيد نشرها حديثا ، ومنها تلك الترجمات التى قام بها استاذ الجيل الاستاذ أحمد لطفى السيد ويحلو لنا فى هذا البحث أن نستعرض رأى أرسطو فى الشعر والفن والجمال • وسيتبين لنا أن آراءه من أعمق وأصدق الآراء التى قيلت فى هذا المضمار ، فأتيح لها أن تعيش وتبقى على الأدهار •

قسم أرسطو الشعر الى غناء وملاحم ومسرحيات ،فوضع بهذا التقسيم الأساس للنقد الأوربى الحديث • وكان يقصد بالشعر الغنائى ذلك الشعر الذى ينبع من النفس الى النفس ويخاطب القلب والأرواح ويثير الأحاسيس والمشاعر ، ومن أجل ذلك أعجب بقول الشاعر «موزى» الذى كان يعيش قبل أرسطو بأربعة أو خمسة قرون : «الغناء هو اللذة الحقيقية للحياة» واعتبر الغناء من أكثر الدعائم ضرورة للتربية فى المدينة الفاضلة لأن كل مايؤتى لذات بريئة وطاهرة يمكن أن يشارك فى غرض الحياة الاسمى ، أو يكون وسيلة للترفيه » •

أما الملاحم فهى القصة الطويلة التى تصف أعمال أبطال عظام والتى كثيرا ماتصف المعارك والحـــروب ، وتتحـــدث عن النـــزال والطعان والهزيمة والانتصار ، والغزو والفتح ، والاستيلاء ، وتكون لغتها فخمـــة رفيعة الأسلوب ، ومن وزن قوى متين •

وتشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المألوف • وقد تشترك الآلهة فى أحداث الملاحم كما فى الملحمتين الشـــهيرتين اللتين تنسبان الى هوميروس وأعنى بها مسرحيتى «الالياذة» و «الأوديسة» وقد ظهرت فى العصر الحديث ملاحم أوربية شتى منها الكوميديا الالهية لدانتى وأورلاند والغاضب لاريستو والفردوس المفقود لجون ملتون •

أما المسرحية فقد اشترط فيها أرسطو التزام الوحدات الثلاث المشهورة وأعنى بها وحدة الزمان والمكان والموضوع ، وبمقتضى هذا الالتزام يجب أن تقع القطعة المسرحية فى يوم واحد ، وفى مكان واحد ، ولا تشتمل الا عـلى موضوع واحد ، غير أن الفكاك من هـــذه الوحدات لم يلبث أن انطلق • وشرع الكتاب يتحررون منها ماوسعوا الى ذلك سبيلا دون أن يغض هذا

من قيمة مسرحياتهم الفنية ، بل على العكس من ذلك كان هـــذا التحرر وسيلة من وسائل النضج والامتياز .

ولكننا اذا ما تتبعنا تاريخ المسرح وجدنا لفيفا من مشـاهير الكتاب ومؤلفي التراجيديا مثل كوني وراسين ومؤلفي الكوميديا مثل موليير ظلوا يحرصون على تلك القواعد التي وضعها أرسطو قبلهم بآلاف السنين .

ووضع أرسطو للتراجيديا علة غائبة أطلق عليها « التطهير النفسي » ويقصد بذلك أن التراجيديا تطهر النفس البشرية من أدران الخوف وانفعالات الشفقة ، لانها تثير مثل هذه المشاعر بين حوادثها فتداوينا بالتي كانت هي الداء على حد تعبير أبي نواس .

ويظهر أن ارسطو قصد في نظرته التطهير الى هـــذين الانفعالين لان التراجيديا الاغريقية كانت زاخرة بهما ، مقتصرة عليهما . وكانت تدور في مجموعها حول الآلهة أو الملوك والأمراء وما يدور بين هذه القوى من انفعالات الخوف والشفقة .

وقد تطور فن المأساة على مرور الايام واصبحت المسرحية لا تقتصر على هذين الانفعالين بل تطهر النفس من شتى الانفعالات والمشاعر المكبوتة التي لا تجد متنفسا لانطلاقها ولا تلقى سبيلا الى خروجها .

وكان أرسطو يرى أن الأدب يهدف في مجموعه الى التأثير في النفوس على نحو لاشعوري ، فلما تقدم الزمن ظهرت المذاهب الأدبية المختلفة التي نادت بالغايات الارادية التي يهدف اليها الادب ، ويسعى الى تحقيقها ويعمل على نشرها .

أما في الفن فقد كان أرسطوطاليس يعتقد أن الفن نوعان : نوع يكمل الطبيعة كالطب ، فانه اذا اقتصرت الطبيعة في منح الصحـة للبدن ، جاء الطبيب يساعد الطبيعة بفنه ، ونوع يسمى الفنون الجميلة كالتصـــوير والموسيقى والشعر ، وهذا النوع عمله أن يقلد الطبيعة في كمالهـا ، فاذا صور انسانا فهو يصور الانسان كاملا ، وبعبارة أخرى يجب على المصور أن يرى الانسانية في الفرد .

وكان يعتقد أن التربية تتكون عادة من أربعـــة أجزاء متميزة ، هي الآداب والرياضة البدنية والموسيقى وأحيانا الرسم : فالأول والأخير باعتبار منفعتهما التي هي محققة كما هي متنوعة في الحياة كلها والثاني باعتبـاره صالحا لان يورث الشجاعة . أما الموسيقى فان الأولين لم يسلموا البتـــة بالموسيقى في التربية ، على أنها حاجة ، بل انهم كانوا ينظرون اليهـــا عادة على أنها ملذة ليس غير ، ولم يقبلوها على أنها شيء نافع كالنحو الذي لاغنى عنه وهو من الأسس الرئيسية التي يدعو أرسطو الى تعليمها في المدينة الفاضلة لاستخدامه في شئون التجارة والاقتصاد المنزلي ، ودراسة العلوم في طائفة من الأعمال السياسية ، ولا كالرسم الذي يعلم صدق الحكم على نتاج الفن ، ولا كالرياضة البدنية التي تؤتي الصحة والعافية ، بل لم يجدوا في الموسيقى الا شغلا كريما للفراغ واذا كانت هناك استراحة خليقة بالرجل الحر فانها الموسيقى ، وفي ذلك يقول هوميروس :

« فلندع الى الوليمة شاديا ذا صوت شجي » أو حين يقول : على بعض آخرين من أبطاله الذين يدعون الشادى الذى يسحرهم جميعا صوته ، وفى مقام آخر يقول «أوليس» : ان أحلى اللذات عند الناس حين يستسلمون للسرور انما هى أن يستمعوا فى المأدبة التى يصطفون فيها لأناشيد الشاعر ٠

ولكن أرسطو ينظر الى الموسيقى من وجهة نظر أخرى ، فهو يرى أنها وسيلة للوصول الى الفضيلة ، فهى تعود النفوس لذة شريفة طاهرة ، كما ان الرياضة البدنية بعيدة الاثر فى الاجسام ، وهى بمعاونتها على ترويح النفس تساعد على تكميلها ، وهى استمتاع حق ، وبما أن الفضيله تنحصر على التحقيق فى أن يحسن المرء الاستمتاع والحب والبغض كما يأمر به العقل فينتج من ذلك أنه لاشىء احق بدراستنا وعنايتنا مثل ملكة الحكم الصحيح على الأشياء ، وان نضع لذتنا فى الاحساسات الشريفة والأفعال الفاضلة وانه لاشىء أقوى من الايقاع وأغانى الموسيقى لحكاية الغضب والطيبة والشجاعة، بل الحكمة ذاتها وجميع احساسات النفس حكايات حقيقية بقدر الامكان كما تحكى أيضا جميع الاحساسات المقابلة لتلك ، واذا كانت الحوادث الواقعية تكفى أن تثبت ، كيف يغير حالات النفس مجرد حكاية الأشياء التى من هذا القبيل سواء بالفرح أم الحزن ، فما بالك بالموسيقى ؟ فمتى تغيرت طبيعة الالحان تغيرت معها انفعالات المستمعين تبعا لكل واحد منها ٠ فباللحن الشجى كلحن المذهب المسمى « ميكسوليدى» تحزن له النفس وتنقبض، والحان أخرى ترقق القلب ، وتلك هى الاقل فى مراتب التفضيل ، وبين هذين الطرفين لحن آخر يواتى النفس على الخصوص سكوناتاما وهو المذهب الدورى الذى هو وحده يؤثر هذا الاثر فيما يظهر ٠ أما المذهب الفريجى فهو ينقل النفس الى التحمس ٠

ودافع ارسطو عن الموسيقيين دفاعا مجيدا ودحض القول القائل بأن الموسيقى تسقط بالرجل ، وقال : ان دراسة الموسيقى يجب ألا تضير مقام المهنة التى سيمتهنها أولئك الذين يتعلمونها ، وانه لايجوز مطلقا أن نقول انها تضعف الجسم فتجعله غير قادر على مشقات الحرب أو القيام بالشئون السياسية ٠

واستنكر أرسطو استخدام بعض الآلات الموسيقية فى التربية ومنها المزمار والآلات التى ليست الا لاستعمال الفنانين كالقيثارة وما يقاربها ، وقال : ان «المزمار» ليس آلة موافقة للأدب ، ولا يصلح الا لاثارة الشهوات، ويجب أن يقصر استعماله على الظروف التى فيها يقصد الى التقويم لا الى التعليم ، كما ذكر أن للمزمار ضررا آخر وهو أنه يمنع الكلام فى أثناء تعلمه وقد أخطأ الأقدمون فى وضع أهمية كبيرة لهذا المزمار اذ رئى فى «مقدونيا» مواطن يضبط نغمة الجوقة الموسيقية على نغم المزمار الذى يزمر به هو نفسه وصار هذا الذوق قوميا فى أثينا حتى لم يبق فيها رجل حر لم يتعلم هذا الفن ، غير أن التجربة مالبثت أن رفضت المزمار حينما قدر : ماذا يمكن أن يساعد على التربية أو يضر بها من أمر الموسيقى ، كذلك أبطلت معه آلات قديمة مثل البريتول والبكتن ، وهناك أسطورة قديمة تحدثنا أن منيرفا

التي اخترعت المزمار مالبثت أن تركته ، وتزعم نكتة فكهة أيضا أن غضب الآلهة على هذه الآلة جاء من انها تشوه الجسم .

ولست أدري السر الحقيقي الـذي يكمن وراء استنكاف أرسطو لاستخدام المزمار ويصعب علينا أن نفهم قصده من هذا على ضوء العلم الحديث .

ولكن هذا كله لاينقص من قيمة آراء أرسطوطاليس في الموسيقى .

أما الرسم فقد كان يعتقد أنه تقليد للطبيعة بيد أن هذا المذهب لم يلبث أن تهاوى أمام المدارس الحديثة في الرسم كالمدرسة السيريالية ونحوها ، وكان يعتقد أن المرء يتعلم الرسم حتى يتجنب الخطأ والسهو في شراء الأثاث والآنية وفي بيعها .

وربما لم يكن أرسطو موفقا في رأيه في الرسم كتوفيقه في رأيه في الموسيقى ، غير أنه لم يفتح الباب أمام الناس جميعا لتعلم الفنون بخيرها وشرها في مدينته الفاضلة ، انما قصر القول على استخدام آلات معينة في الموسيقى ، وأساليب خاصة في الرسم ، وذكر أنه يجب على المشرع أن يقسو في أن ينفي عن مدينته فحش القول كما ينفي منها كل رذيلة أخرى فان الانسان متى سمح لنفسه بقول الفواحش أوشك أن يسمح لها أن يأتيها وبما أننا ننهى عن الاقوال الفاحشة فلننه كذلك عن التمثيل والصور المنافية للآداب وليعن الحاكم بأن يجنب الاطفال النظر الى أن أى تمثال أو رسم يثير معاني من هذا القبيل الا أن يكون ذلك في معابد أولئك الآلهة التي يجيز فيها القانون نفسه الفحش ، وغير أن القانون يأمر ألا يدعو امرؤ في سن أكبر أولئك الآلهة لنفسه أو لزوجه أو لأولاده .

ويرى أرسطو انه يجب أن يحرم القانون على الشبان شهود القطع التمثيلية البذيئة والمضحكة الى السن التي فيها يستطيعون أن يتبوءوا مقاعدهم في الموائد العامة . وعندئذ تكون التربية قد حفظتهم من أخطار تلك الاجتماعات .

وقد أحب الاغريق الجمال منذ قديم الزمان فقال بركليس : «نحن قوم نحب الجمال بشكله الطبيعي البسيط » ويقول كليومينيس : «خلقنا لنعبد الجمال ، وخلق الجمال لنعبده» ويقول المؤرخ بلوطارخس : «ان الجمال يجذبنا اليه بقوة تحدث فينا همة ناهضة ليست هي غريزة التقليد بل هي الفطنة يثيرها ما تحدثه فينا مشاهدة الجمال من أثر يدفعها الى العمل » ويقول المؤرخ ثوكينريس : « نحن نحب الجمال بمقدار ونتفلسف من غير حيطة » .

ولذلك وجدنا تماثيلهم تفيض بالسحر والجمال ، وكانت فينوس الهة الاغريق رمزا ناطقا بالجمال ، والسحر الشهي الحلال .

وانتقل الاغريق من عبادة الجمال الطبيعي الـذي يكمن في الطبيعة الساحرة الباهرة ، وابتداع آلهة لكل مظهر طبيعي الى تقديس الجمال في الجسم الكامل . فاعتنوا بالألعاب الرياضية والحفلات الأولمبية . ومضى أرسطو ينادي بضرورة الألعاب في التربية الفاضلة فالشغل مجلبة للنصب ،

وحصر للملكات ، فيلزم حينئذ الانصراف فى الوقت اللائق الى استخدام الألعاب باعتبارها دواء ناجعا وأن الحركة التى يؤتيها اللعب تبسط العقل وتريحه بما تؤتيه من اللذة ٠

وكان سقراط يجعل الجمال شرطا للفضيلة ، كما جعله أفلاطون فى جمهوريته بين أوصاف الفلاسفة الحاكمين عقلا مطبوعا على الجمال والانسجام فيمن تسمح له غرائزه أن يدرك صور الأشياء على ماهى عليه فى ذاتها ٠

أما أرسطوطاليس فكان يرى فى الجمال المحاكاة الصادقة ، ولم يقتنع برأى أفلاطون القائل بأن الجمال ليس هو الحقيقة وأن اشعار هوميروس لاتصلح مثلا دليلا على الزمان والمكان وان كانت آية من آيات الجمال ٠ ولما رأى الناس يسرفون فى بيان مدى محاكاة الفنانين للطبيعة قال انهم لايحاكون أشياء خاصة ، انما يحاكون أشياء عامة ، ثم فصل صفة الجمال العامة بأنها تعتمد على كم معين ونسق معين ٠

هذه بعض آراء أرسطوفى الشعر والفن والجمال كما وضحها فى كتاب السياسة والخطابة والشعر وكتاب الأخلاق الى نيقوماطوس وهو ابنه ، ومنها يتضح لنا قوة تلك الأشعة الفكرية التى نبعت من فكره وتغلغلت عبر السنين وهتكت حجب ظلمات القرون ٠

الفونس دوديه

بين أحضان المروج الخضراء حيث الخضرة النضرة تمتد امتداد البصر ، وتنحنى قامات الزرع وهامات أشجار الخزامى فى يد النسيم الحنون .. وحيث الشمس الدافئة الجميلة .. وحيث ينتثر الغبار .. فيملأ الجو .. فى بعض الاحيان .. خرج « الفونس دوديه » الكاتب الفرنسى الى الوجود .

وقد أخرجت الكاتبة المعاصرة « مس فيرادوبيه » كتابا عن هذا الكاتب العبقرى درست فيه طفولته ونشأته وحبه وزواجه وانتاجه الأدبى منذ أيام معدودات فحق لهذا الكتاب أن يكون كتاب الموسم .

نشأ الفونس فى أحضان الريف وخرج الى الوجود عام ١٨٤٠ وكان قد مضى على زواج أبيه عشر سنوات . ويزعم بعض الرواة أن « الفونس » خرج الى الحياة وأبواه فى ضنك شديد ، ولكن « الفونس » يقول عن نفسه فى كتابه « الكائن الصغير » : ان أبويه لم يكونا فى ضيق وعسر فى هاتيك الأيام وكان « الفونس » يحب أمه حبا جما وكانت أمه تحب الكتب والاطلاع الى أبعد حد فكان يجلس اليها الفونس بين الحين والحين يقص عليها روائع القصص وأجمل الحكايات فبثت فى الطفل الصغير حب الأدب والقراءة وكان يصحبها الى الكنيسة ، فغرست فى نفسه حب الدين والتقى وأحب أجراس الكنيسة وهى تقرع الآذان برنينها فى الفضاء .

وظل الفتى يتعلم فى مدارس ليون ، ثم تاقت نفسه الى الحياة فى باريس واستهوته أضواؤها وبهره صيتها وحلم بالشهرة بين أرجائها وهتف باخوته (هيا فلنذهب الى باريس) .

وذات يوم أزمع مع أخيه (ايرنست) الرحيل الى باريس ، وفى الساعة الثالثة صباحا وصل « الفونس » الى المدينة الحالمة فى حذائه الريفى الكبير وهيئته الرثة ، فلم يكن ألفونس يملك فى ذلك الوقت حذاء مدنيا رقيقا . وكان قد أنفق مامعه من النقود اللهم الى مبلغا ضئيلا يحتفظ به فى جيب سترته .

ودخل ألفونس باريس وهو يتأبط ذراع أخيه أرنست على حين كانت باريس تغط فى نومها تحت سحب السماء الرمادية . وعبرا الجسر الذى يؤدى الى الضفة اليسرى حيث كان باعة الصحف واللبن يسعون فى الارض وعرج ألفونس على الحى اللاتينى حيث قطن فى حجرة صغيرة هناك ينهل من آداب فرنسا الخالدة ، وكان يختلف بين الحين والحين الى مسرح الأوديون حيث عرف الكاتب الفرنسى فلوبير ووطد صداقته مع كثير من الكتاب الفرنسيين .

وتعلم الكاتب لأول مرة أن يلبس السترة الطويلة الذيل وأن يلج صالونات الطبقة الراقية وأن يكتب فى الصحف السيارة مثـــل جريدة (سبكتاتور) • وفى مساء ١٤ من يناير عام ١٨٥٨ انتشرت الأخبار فى أرجاء المدينة كالنار فى الهشيم بأن هنالك مؤامرة قد دبرت لقتـــل الامبراطور والامبراطورة اذ ألقى أربعة من الايطاليين قنابل على العربة الامبراطورية فى أثناء ذهابها الى أوربا وقبض على أحد المؤتمرين ولا يزال البحث جاريا على الآخرين الذين تاهوا فى زحمة المتفرجين •

وقد خرجت جريدة (سبكتاتور) على الناس بمقال شديد اللهجة تتهكم فيه على الامبراطور وتقول : ان مثل هذه الحوادث لاتحدث الا فى عهـــد الحكومات الظالمة فأغلقت الجريدة وضاع مورد كبير من موارد الشـــهرة والمال للكاتب الفرنسى ألفونس دوديه •• ولكنه أخذ يكتب فى صحف أخرى ويحضر اجتماعات الطبقة الراقية فأسر الرجال والنساء بجمـــاله الرقيق وصوته الممتلئ العميق ووجهه الأسمر الذى لفحته شمس الجنوب •

وعاش ألفونس فى بوهيميا فترة طويلة من الزمن ولكن حياة بوهيميا الصاخبة اللاغية وكئوس الخمر وأقداح النبيذ لم تؤثر فيه لطبيعة نفسه على حد تعبير أخيه ايرنست وأخذ الفونس يضرب فى ميدان الصحافة والشعر حتى بزغ نجمه وعلا اسمه ، ثم عمل فى قصر (البوربون) وعندما بلغ أعتاب قصر البوربون كتب أخوه أرنست يقول : (ان ألفونس ذو طبيعة حالمـــة ومزاج رقيق أكثر منى • وهو شاعر ساحر والطبيعة تفعل فيه سحرها حتى اليوم الذى يستوفى فيه أنفاسه• وهو وسيم جذاب وعبقرى • فماذا ينقصه ليكفل له النجاح ؟ غير أن روحه الحالمة تسيطر عليه •• وهذه هى خصـــلة العباقرة •• ان العبقرية حمل ثقيل •• وهناك أزهار تحتاج الى مناخ خاص وان ألفونس من هاته الأزاهير •

لم تكن والدة ألفونس ولم يكن أخوه يحبذان هذا العمل له ويريان أنه غير مخلوق لهذا النوع من الأعمال • وصدق تكهنهما بعـــد ذلك اذ طلب الفونس بعد فترة وجيزة من الدوق (دى مورنيه) أجازة للراحة والسياحة فترك الشاب باريس فى نوفمبر عام ١٨٦١ فى ليلة ممطرة وودع أصدقاءه قبل سفره وأخذ يقول : اننى نبت قد تجمد نصفه غير أن الشمس الدافئة فى الجنوب سوف تحييتنى •• وفى تلك البقاع كان نفر من أصدقائه وذوى قرباه ينتظرون الكاتب الســـاحر الا أنه لم يمكث فى القرية طويلا وأزمع الرحيل الى بلاد المغرب وكورسيكا حيث متع بصره وغذى قريحته بمشاهداته وتأملاته فى تلك البلاد •

وفى مستهل عام ١٨٦٤ رجع ألفونس دوديه الى باريس حيث أخرج بعض قصصه ومسرحياته ومن أروع القصص التى دبجتها يراعه قصة سافو Sapho والخالد L'immor tel وجاك Jack و نومارومستان Numa Roumestan والثرى Le Nobab والملوك فى المنفى les roisen exil وغيرها من القصص والمسرحيات •

وفى هذه الفترة خفق قلب الفونس دوديه للحب ومس الهوى قلبه بعصاه السحرية ، فاذا بهذا الكاتب الساحر يهيم شوقا ويفيض حبا ففى

أثناء عرض احدى مسرحياته على المسرح الفرنسى كان ألفونس يلبس حزاما ذهبيا فوق حلة أنيقة وكانت غادة حسناء تجلس فى احدى المقاصير مع أبيها وأمها تدعى جوليا ألرت • كانت جميلة كزهرة الربيع مشرقة كفلق الصبح تتدفق بالحياة والنشاط • وترنو الى المسرح بعينيها التى جمعت أشتات الفتنة ففيها ضلال العقول وهدى الجنون ! وقد سألت الفتاة أحد عمـــال المسرح عن ذلك الشخص الذى يشد وسطه بحزام ذهبى فأجـــابها بأنه ألفونس الكاتب الذائع الصيت • فخرجت (جوليا) عقب الحفل وفى قلبها صورة ألفونس وفى عينيها خيال من مسرحيته التى هزت أفئدة الحاضرين •

وبعد شهور قليلة ذهبت جوليا مع والديها الى بيت دوديه فى قرية آثرى وكانت جوليا ترتدى ثوبا أبيض كنور الصبح وتتغنى بأبيات عـــذبة من الشعر تلقيها أمام الفونس فى صوت حلو طروب •

وما جن المساء حتى اختلى الفونس بأخيه أرنست وأخبره بأنه صريع الهوى وأسير الغرام وانه قد أحب مدموازيل جوليا ألرت ويطمـــع فى أن يتخذها عروسه • وكانت جوليا فتاة صبية صغيرة تحب الشعر والكتب وتمثل التواضع والسحر والأنوثة • وكان الفونس يكره النساء المتحذلقات ذوات المواهب ، ولكنه اليوم أصبح أمام فتاة من طراز جديد ربيت فى بيت من العلم وتقاليد القرن التاسع عشر ، وكانت الى جانب حبها للعلم تجيـــد الحياكة وتؤثر قضاء الأصائل فى الشتاء فى حدائق الفويلرى • وكانت جوليا من الشمال • وكان ألفونس من الجنوب • فجذب ذلك الاختـــلاف نفس ألفونس ووجدها مكملة له • ووجد فيها الهدوء والاتزان والفضيلة التى يمكن أن تسيطر على نفسه وأن تطرد هزائمه وأن تسوقه من نصر الى نصر، فصمم على أن يتزوجها •

ولعل أصدق ماكتبه عن الزواج ماكتبه فى (زوجات الفنانين) : ان الزواج بالنسبة الى مرفأ ذو مياه هادئة وليس بمرفأ تربط فيه نفســـك بوثائق الى الأبد ولكنك تستقى منه الى الاقلاع مرة ثانية) •

وفى مستهل عام ١٨٦٧ زفت جوليا ألرت الى ألفونس دوديه ورحـــل الفونس مع عروسه الى اقليم البروفانس حيث رأت طواحين الهواء وجاسا معا بين المروج ثم عادا الى باريس •

ولكن الحب بين العروسين أصيب بصدمة قوية • اذ تغيرت أخـــلاق ألفونس فى هذه الفترة وأنفق كثيرا من ماله فى العبث واللهو وفى المقاهى والملاهى والمنتديات • وكان يرجع الى عروسه فى الهزيع الأخير من الليل مخمورا فاقد الوعى يتطوح يمنة ويسرة ، ممزق الثياب أشعث الشعر دامى الوجه • وكانت زوجه تقف ازاء هذا كله قوية الأعصاب ضـــابطة النفس وتستقبل ذلك كله بصدر رحب حتى أقنعته بضرورة احترام حرية البيت وسكبت فى نفسه لحن الحب • وكانت مائدته دائما معدة وثوبه نظيفـــا وطعامه جاهزا كما يقول فى مذكراته •

كان ألفونس دوديه يعيش فى طاحونة من طواحين الهواء • وقد كتب

رسائل من هناك استهلها بقوله : أجل ياسيدى ‥ رسائل من طاحونتى ، غير أن الذى يكتب هذه الرسائل ليس طحانا ‥ ولو كان كذلك لاثر بياض الدقيق على سواد المداد • فلست طحانا وانما أنا صحفى يسير • صاحب طاحونة • وقد تظن أن هذا شىء عظيم بالنسبة الى صحفى مثلى ولكن لتهدأ بالا • فما هى الا طاحونة عتيقة مهجورة مفقودة فى اقليم البروفانس • • وما أجمل المقام فى طاحونتى وما حاجتى الى البشر وانا أكتفى بمنظر أفول الشمس وراء أشجار الصنوبر وأطياف النور على الصخور وبصـــوت ريح الشمال الرضية وهى تداعب هامات الأفنان» •

وكا ألفونس دوديه يجلس فى حمى هذه الطاحونة مع أصحابه يستمتع بأجمل القصص وأشجى الأحاديث • وكان صاحبه فرانس العجوز يلعب على الأرغن فيهز أوتار القلوب حتى اذا ما انتهى من تغريده قص عليه قصة السيد (كورنى) صاحب طاحونة الهواء الذى عبس فى وجهه الزمن ودهمته الأحداث • فجعلت أصحاب طواحين الكهرباء يستبدون بالأمر استبدادا • ويذهب اليهم جميع الأهالى لطحن الدقيق أفواجا ولكن السيد كورنى آثر ألا يجعل الشماتة تسرى فى قلوب الناس من أجله ، فأحضر أفواجا من الحمير وجعلها تدخل الطاحونة متعاقبة ، وهى تحمل أكياس القمح وجوالات الدقيق حتى يخدع الناس ويوهمهم أنهم لا يزالون يلجئون الى طاحونة الهواء •

ولم يلبث أن كشف أمره فوضع رأسه بين يديه وانكفأ يبكى فى لوعة تفتت الأكباد وتقطع نياط القلوب •

وهكذا عاش ألفونس دوديه فترة طويلة من عمره فى حمى هـــذه الطاحونة يكتب رسائله ومؤلفاته • فاسترعت مؤلفاته أنظار فرنسا بوجه خاص وأنظار أوربا بوجه عام • وقد صور ألفونس فى بعض قصصه الصراع القوى الجبار الذى نشأ بين أصحاب طواحين الهواء وأصحاب طواحـــين الكهربا •

وأصيب الشاعر فى أواخر حياته بمرض الروماتيزم الذى عاقه عن الحركة والسير ‥ وأخذ يزحف الى عينيه ولم يلبث أن أدركه فى قلبه وهنا حم القضاء ورفرف الموت فوق رأسه بأجنحته السوداء •

وذات صباح استيقظ الناس فى فرنسا ‥ ونبأ موته يملأ كل مكان والعبرات تلمح فى العيون ‥ والكآبة ‥ تلوح على الوجـــوه ، والحسرة تتصاعد من الصدور •

تشارلز ديكنز

يعد تشارلز ديكنز من أشهر كتاب القصة فى الأدب الانجليزى ، فقد ألف بضع قصص مشهورة مثل دافيا كوبر فيلد وقصة مدينتين واليفر توست وبكويك التى تصور لنا انجلترا القديمة ذات الفنادق والعربات تصويرا دقيقا وغير ذلك من القصص المشهورة والمغمورة التى جعلته زعيم القصة فى القرن التاسع عشر ·

وكان عشاق الأدب الانجليزى يرون فى ديكنز رجلا فاضلا قديساحتى كتبت ابنته «كيتى» مقالا عن أبيها جاء فيه : «لقد أحببت والدى ·· أكثر مما أحببت أى رجل فى العالم ·· لقد كان رجلا شريرا ·· شريرا جدا·· غير أنى أحبه ··»

هذه الكلمات التى انبعث بها صوت كيتى ابنته عن أبيها ·· وهى فى التاسعة والثمانين من عمرها وتلقى بصرها عبر الماضى لتجمع من الاحداث مواكب الذكريات وقد جعدت وجهها أمارات الشيخوخة ·· وحنت ظهرها خطوب السنين ·

استمع الى كيتى وهى تقول عن أبيها : قد تكون فضيحة أن أتحدث عن ديكنز وهجرته لزوجه واندفاعه فى طريق الغواية ومصاحبة الشيطان وتتيمه بحب الين ترنان التى تدله بحبها أعواما طوالا وتزوجها وحملت منه ابنا مات وهو فى نضارة الصبا وزهرة العمر ·· لقد حدث أنى كنت أنقب مع مستر روبرتس وهو أحد الناشرين المهتمين بروايات شارلز ديكنز «مكتب تشارلز ديكنز» فعثرنا على مذكرات تلقى أضواء على حياته الخاصة وقصة حبه وغرامه ·

فى احدى مدائن انجلترا الصغيرة عرف ديكنز الكاتب الكبير عائلة هوجارت حيث عاش هادئا ناعما فى كنفها وعكف على كتابه المشهور (بكويك) وكان مستر هوجارت فى ذلك الوقت قد تعدى الخمسين من عمره كان رجلا هادئا وقورا وكان رجلا أديبا فنانا له حظ فى الادب والموسيقى ، وكان لمستر هوجارت ثلاث بنات أثرن تأثيرا كبيرا فى حياة ديكنز وهن كاترين ومارى وجورجينا · ولقد كانت كاترين فى العشرين من عمرها أما مارى فكانت فى السادسة عشرة أما جورجينا فكانت لاتزال طفلة صغيرة ·

وكانت الفتيات الثلاث بمثابة نسيم عطرى يعطر حياته ويملأ صدره فيبعث فيه النشوة وتتسرب الى قلبه السعادة ·· تلك السعادة التى فقدها فى حبه الأول مع ماريا ·

كان ديكنز ينظر حواليه فاذا بفتيات فى عمر الزهور يحطنه من كل جانب ويملأن فراغ حياته ويشعرنه بالحنان المفقود٠٠والراحة الضائعة٠٠ فهذه تنثر عليه ابتساماتها كاللآلىء ٠٠ وتلك ترنو اليه بنظرة قد جمعت كل آيات الولاء ٠٠ وتتقدم اليه لتستمتع بخيالاته الرقيقة وأحلامه الحلوة فيردد فى أذنها بعض أشعار شكسبير أو ملتن ٠

ولكن ماذا ؟ ماله يستيقظ من نومه أرقا قلقا ٠٠ ماله يرنو الى كاترين فيحس فى تقابل نظراتهما شيئا أقوى من النظرة وأحد من البصر ٠٠ وهو أشبه شىء بالعناق ؟ مالم يقف ساهم الفكر مقلب النظرات حائر اللب ٠٠ معقود الكلمات كلما دنت منه ٠٠ أو لاحت أمامه ٠٠ أو خطرت عابرة من حجرة الى حجرة ؟

ترى هل حضر الى هذا المكان ٠٠ لينبثق فى قلبه حب وليد ٠٠ ترى هل حضر الى هذه البقعة ٠٠ ليندفق من فؤاده ٠٠ حب قوى جارف ٠٠ لاتقيده الحدود ولا السدود ٠٠ لقد كان ديكنز مترع الشباب تتدفق منه الحيوية ويسيل منه النشاط ويتوقد قلبه حساسية وشعورا فانقلب فى غمضة عين محبا مستهاما ٠

كان الليل يهبط على ديكنز وهو لايزال يقظا فى غرفته عاكفا على كتبه وأوراقه فتأتى كاترين مشفقة عليه من السهر وتشاركه فى ألمه وتجاذبه أطراف الحديث ٠

ونحن لانستطيع أن نصور كاترين أسمى وأصدق من التصوير الذى وضعته لنا مسز كريستان فى احدى رسائلها : كانت كاترين فتاة لطيفة٠٠ وادعة ذات أهداب جميلة وطويلة ٠٠ وعيون ساحرة زرقاء تسلب أفئدة الرجال ٠٠ أما الأنف فدقيق والجبهة جميلة ٠٠ والفم صغير والشفاه لمياء حمراء ٠٠ تترامى عليها ابتسامة جميلة معبرة وتنساب من عينيها نظرات وسنانة حالمة ٠ ٠ غير أن ناحية العيب فى وجهها أن ذقنها كانت تنحنى سريعا فوق عنقها ٠

كانت تقف أمام المرآة تنضح بالعطر فكانت تراود ذهن ديكنز فى هذه اللحظة أفكار وخيالات ٠٠ ايه أيها العطر ! ٠٠ لقد خرجت من أزهار عبقة جميلة مائسة وستعلم حين تسبكبك كاترين على جسمها الفاتن أنك رجعت الى أجمل من أزهارك وأحلى من شذاك وأنك كالقديسين ٠٠ تركوا الدنيا ولكنهم ظفروا بنعيم الجنة ! ٠٠

وكان تشارلز ديكنز يرسل الى صاحبته كاترين قصاصات من الورق يكتب فيها هذه الكلمات (حياتى العزيزة ٠٠ أرسل اليك قبلاتى الحارة ولثماتى الثائرة) ٠

وكان ديكنز يسأل كاترين بعد تلاوة هذه القصاصات أن تنبئه برأيها فيه ، فكانت تجيب عن سؤاله بابتسامة معبرة ٠٠ وقد انتهى بهما الوله والحب الى عقد قرانهما فى ٢ من أبريل عام ١٨٣٦ ٠

ولقد عاشت مارى أخت كاترين مع أسرة ديكنز مدة طويلة ٠ غير أن القدر لم يشأ أن تدوم هذه الصحبة طويلا ، فقد حدث أن ذهب الثلاثة ديكنز وكاترين ومارى الى أحد المسارح فأصيبت مارى منذ هذه الليلة بمرض خطير لم يمهلها سوى ساعات قلائل ، فطارت نفس ديكنز شعاعا من أجلها وقد أثر هذا الحادث فى نفس ديكنز تأثيرا بالغا وكتب يقول : «بعد أن ماتت كان خيالها يراودنى فى كل ليلة لشهور متعددة ولا عجب فى هذا فقد كان ديكنز رقيق الشعور مرهف الحس تراوده الأفكار وتلاثمه الأشباح وتؤثر فى حياته الصور وتتراءى فى كتاباته كما فعل فى أوليفر توست أو دافيد كوبرفيلد ، ومأساة مارى أشبه بمأساة نللى الصغيرة فى احدى رواياته ٠

ولكن حياة ديكنز لم تمض هادئة وادعة كما كان يظن ، بل عصفت بها الأحداث واجتاحتها الخطوب وثارت فى جوانبها الأعاصير وانقلب ذلك المحب الواله فى حب كاترين شخصا باردا ثقيلا ٠٠ وانقلب الوجه المعشوق شيئا تافها بسيطا لايأبه له ديكنز ولا يعيره التفاتا ٠٠ وازاء هذا الفتور والنفور هجر ديكنز كاترين ٠

حقا لقد كانت تحاول دائما أن تثيره ٠٠ وكان يحضر الى منزله فيجدها غارقة فى لعب النرد مع أحد أقاربها فلا تحفل بوجوده ولا تعبأ بحضوره غير أنها كانت فى أغلب الظن تفعل ذلك لاثارة حبه وكان هو مشغولا عنها بحب الين ترنان ٠

ومهما يكن من شىء فقد دبت القطيعة بين ديكنز وكاترين فهجرها وعندما كانت كاترين تمرض كان يبعث اليها من بيته برسالة لا تدل على أنها رسالة زوج الى زوجته ٠٠ انما تدل على أنها رسالة رجل ثائر ٠٠ حائر ٠٠ عصفت به الاقدار واجتاحت رأسه الهواجس والظنون ٠

لقد عرف ديكنز فى الأيام الأولى من زواجه أنه رجل أساء الاختيار فلم تفهمه زوجته ولم يفهم زوجته ولم يكن أهلا لها ولم تكن أهلا له وان كان لها منه عشرة أبناء ٠٠ فكتب يقول : (انى أنا وكاترين ليس أحدنا أهلا للآخر ٠٠ وليست هى التى تجعل حياتى ضيقة عسيرة بائسة انما أنا أيضا فهى كما تعلم محبوبة لطيفة ولكن واأسفاه ليست الرابطة بيننا وثيقة ولا العاطفة وشيجة ! وربما تكون كاترين أكثر سعادة لو أنها تزوجت رجلا آخر ، فان الفراق بيننا لابد أن يكون ليسعد كل منا ٠٠ قلبى يتقطع اربا اربا ٠٠ ونفسى تطير شعاعا عليها ، اذ أعلم كم هى حزينة عندما تعلم أنى عليل ٠٠ أو عكر المزاج ، ولكن ما الحيلة ٠٠ والعوائق جمة ، وليست هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تجعلها تفهمنى أو تجعل مزاجها يساير مزاجى ؟

وهكذا عصفت الأقدار بحب كاترين وديكنز ويبس الثرى بينهما ودبت القطيعة والجفاء بين روحيهما ٠٠ وقد يظن ظان أنها لم تكن تملك الاسلحة الكافية لاستهواء ديكنز غير أن من يقرأ رأى ديكنز الأول وخطاباته اليها وتشببه بها يضرب بهذا القول عرض الحائط ٠

والواقع أن ديكنز كان من اللون المتقلب ٠٠ كان من الكتاب الذين

يجدون اللذة فى التغيير .. والذين يؤثرون الثورة والانقلاب فى ذروة المجد ... لمجرد خاطر طاف بأذهانهم أو فكرة ألمت بعقولهم ....

كان ديكنز من الكتاب المفرطين فى الشعور المسرفين فى الادراك ومثل ذلك كان كتاب تولستوى الذى كانت زوجته تحيا بلا خدم ولكنه دفعها الى أن تسامر عشرة أو اثنى عشر من أصدقائه تحت سقف واحد ...

ولما مات ديكنز عام ١٨٧٠ طار نبأ موته فى الآفاق ... وروعت بموته انجلترا وامريكا ... وكندا واستراليا ... وغيرها من بلاد العالم ... فقد عرفه كل الناس حتى الصغار ، غير أن طفلا صغيرا على حد تعبير الكاتب الفرنسى المعروف أندريه موروا رابه شغل الناس فى هـــذا اليوم .. وتزاحمهم واجتماعهم فتساءل قائلا .. هل مات مستر ديكنز حقا . أو يحتفل الناس الليلة بعيد الكريسماس .

هنريك ابسن

رائد المسرح الحر

قدمت بعض الفرق المسرحية تحفتين رائعتين من مسرحيات ابسن = احداهما بعنوان لعبة البيت ، والأخرى بعنوان «الأشباح» ٠

والواقع أن هنريك أبسن يعد علما خفاقا من أعلام الدراما في العصر الحديث وقد ولد عام ١٨٢٨ بالقرب من مدينة «سكين» في بلاد النرويج وامتاز عن اخوته جميعا منذ نعومة أظفاره بدقة حسه ورقة مشاعره وولعه بالشعر وعكوفه على الانتهال من مناهل الأدب في كتب العباقرة الأولين ٠

اهتم هنريك ابسن في مطلع حياته بنظم الشعر وكتابة المسرحيات الشعرية ، ولكنه لم يلبث أن هجر الشعر الى النثر ووجد فيه الحرية في التعبير والانطلاق في التفكير٠ ومعالجة المشكلات الاجتماعية في صورة أوضح ووسيلة أسطع ٠ ويمكن ان تقسم مسرحيات أبسن ثلاثة أقسام :

القسم الاول هو تلك المسرحيات التي تغرق في جوها الديني والتي كتبت على غرار مسرحيات الاغريق مثل مسرحيات براند وبيرجيت ٠

والقسم الثاني من مسرحيات أبسن هو نقطة التحول من الشعر الى النثر وتنزع مسرحيات هذا القسم نزعة اجتماعية واضحة٠ وهكذا ركز أبسن اهتمامه نحو المجتمع بعد أن كان يركزه نحو الدين ٠ ويمكن أن نعد مسرحيات «الأشباح» Ghosts التي قدمها المسرح القومي وبيت الدمية أو لعبة البيت Doll's House التي قدمتها فرقة الطليعة وأعمدة المجتمع من بين مسرحيات هذا القسم ٠

والقسم الثالث من مسرحيات أبسن يعالج المشكلات النفسية ونزعات الفرد واهوائه وعلاقاته بالمجتمع وبالمثل العليا ويجعل الطبيعة البشرية ميدانه الذي يصول فيه ويجول ، ويمكن ان نعتبر مسرحيتي « البطة الشموس » ٠

و « العمود العظيم »

من بين مسرحيات هذا القسم ٠

وتظهر قيمة مسرحيات أبسن في زعامته للمذهب الفردي أو المذهب الحر ، وينادي أصحاب هذا المذهب بضرورة اطلاق حرية الفرد ليعمل وفق حقوقه الأساسية المستمدة من طبيعته الانسانية ، ففي العالم قانون صحيح مطابق للطبيعة ثابت أبدي يتولى الله تأييده ويعاقب من يخالفه، ولذلك يجب

على الأفراد أن يخضعوا لاحكامه ومن يتنكر له فقدتنكر لطبيعته ومن نفر منه فقد نفر من انسانيته ٠

وهذا القانون الطبيعي على حد تعبير الفيلسوف الروماني شيشرون هو أساس المبادىء الخلقية والقانونية ، ولذلك يجب على المجتمع ألا يتدخـــل في شئون الفرد ، لأن هذا التدخل يقتل في الفرد اعتماده على نفسه ويجنى على اســتعداده الطبيعى ويضعف من شخصيته ويحدد من امكانياته نحو التطور ٠

أما عدم التدخل فانه يمكن الفرد من تقوية صفاته الشخصية وتنمية ملكاته ويزوده بالوسائل التى عن طريقها يصل الى اسمىدرجات الحضارة

هذا هو خلاصة المذهب الفردى الذى لخصه الفرنسيون فى قولهم دعه يعمل دعه يمر Saissez faiue laissez passerوقد حمل هنريك ابسن لواءه كما حمل لواءه من قبل آدم سميث وجون ستيوارت ميل ٠ وحاول ابسن أن يحقق هذا المذهب فى أكثر مسرحياته ٠

ومن يقرأ مسرحيته « بيت الدمية » يجد صراعا بين الفرد والمجتمع وبين المثالية والواقعية على حد تعبير برنارد شـو فى مقاله عن « النزعة الابسينية » ٠

وخلاصة هذه المسرحية أن نورا زوجة « هلمر » مدير أحد المصارف استطاعت أن تزور سندا صغيرا باسم أبيها بعد وفاته بأيام لتستدين من موظف فى المصرف مبلغا من المال حتي تمكن زوجها المريض من الذهاب الى ايطاليا للاستشفاء ولم تشأ (نورا) أن تخبر زوجها بهذا الدين حتى لاتثير فى نفسه بواعث الضيق أو أسباب الألم وتهيىء له رحلة سعيدة رغيدة كما لم تشأ نورا أن تخبر أباها بشأن هذا الدين برغم انتحالها لتوقيعه ، لأنه كان على فراش الموت ولا تريد أن تزيد فوق غصصه غصة أخرى ٠

ويشاء سوء الطالع أن يرتكب « كروجستاد » الموظف جريمة ما ، فيصمم هلمر مدير المصرف على فصله دون أن يحيط علما بشأن دين زوجته فيذهب كروجستاد الى نورا زوجة مدير المصرف ويتوسل اليها أن تتوسط لديه عند زوجها ولكن هلمر لا يريد أن يتزعزع عن رأيه أو يبغى عنه حولا، حينئذ لا يجد كروجستاد وسيلة لانقاذه سوى التهديد والوعيد ، فيذهب الى نورا المسكينة مهددا متوعدا ولكنها لا تملك سوى الدموع تذرفها من مآقيها والحسرة تبعثها من أغوار نفسها وأعماق قلبهـــا ، وعلى حين غرة يصمم كروجستاد أنيرسل الى زوجهاخطابا يخبره بالحقيقة المريرة ويخبره أن نورا قد لجأت الى التزوير ٠٠ التزوير الذى لاشك سيسلمها الىالسجن ويهوى بسمة البيت الى الحضيض ، ويجعل سيرة بيت هلمر مضغـــة فى الأفواه وحديثا على الشفاه ٠

وفى انتفاضةالغريق بيناليم ورجفة الطيرالذبيح يرسل كروجستادالخطاب

المشئوم الى هلمر • ولا يطالع هلمر الخطاب حتى تبدو امارات الغضب على وجهه وتتجلى علائم الضجر والحقد وينفجر كالبركان الثائر فى وجه زوجه وينقلب من الزوج المدلل لزوجته الى نمر مفترس يوشك أن ينقض على فريسته وطفق يوجه الى زوجته أقذع الوان السباب لانها خرجت عن طريق الحق وجادة الصواب وحطمت تقاليد المجتمع الموروثة منذ الأزل •

حقا لقد زورت نورا من أجله واستدانت المال من أجله ، ولكن هذا يعد بالنسبة اليه أمرا حقيرا، لانها حطمت المثل العليا وهوت بالقيم الاخلاقية الرفيعة ، وانحدرت بها الى الحضيض •

ولم تستطع نورا قبل زوجها الا أن تغضب وتصمم على ترك المنزل . وهنا يظهر كروجستاد ويطلب من هلمر ان يعد الآن منتهيا وانه لن يبلغ النيابة ولن يطلب التحقيق • فتهدأ نفس هلمر ويثوب الى رشده ويرجع الى وعيه ويصبح مرة أخرى هادئا رزينا ، ويطلب من زوجته أن تظل فى البيت لان المجتمع لن يعلم عن هذه الجريمة شيئا • غير أن نورا المعتزة برأيها المتمسكة بكرامتها لا تقبل مساومة فى الرأى وتصمم على ترك المنزل مهما تكن النتائج وينسدل ستار الفصل الآخير من المسرحية على هذا المنظر الأليم •

وقد ثار نقاد المسرح على هذه الخاتمة وعدوا فى هذه المسرحية خروجا الى العصيان ودفعا للزوجات للخروج على طاعة أزواجهن ، غير أن أبسن بهذه الخاتمة أراد أن يبين مساوىء المثالية ومحاسن الواقعية وينصر المذهب الحر الذى كانت بطلته نورا وحاملة لوائه •

لقد عملت مارأت أنه الصواب غير أن تقاليد المجتمع متمثلة فى زوجها وقفت فى وجهها حجر عثرة • فلم تجد بدا من هجر زوجها كما تهجر المقرورة المدفأة لان فحمها قد احترق وحرارتها قد خمدت •• على حد تعبير بريان برونز فى كتابه Sit plays by Jbsen عن ست مسرحيات لأبسن •

واستخلص بعض النقاد الآخرين من هذه المسرحية ومسرحيات أخرى مشابهة أن أبسن من الدعاة الى تحرير المرأة وتخليصها من عبودية الرجل كما يزعمون ، ولكن الواقع أن أبسن لم يكن من أصحاب هذه الدعوة بطريق مباشر فى يوم ما • ولم يكن من الكتاب المتحمسين لقضية المرأة فى وقت ما انما كل مافى الأمر أن أبسن كان يعتقد اعتقادا جازما أن المرأة أقدر من الرجل على اتخاذ المذهب الفردى والدعوة اليه ، والمرأة لاتجد حرجا فى التحرر من قيود التقاليد وأصفاد المجتمع • بل أنها بحكم أنوثتها تستطيع أن تبتدع فى أزيائها ماشاء لها الابتداع وتغير فى نظامها ماشاء لها التغيير على النقيض من الرجل الذى يحافظ على التقاليد ويرعى حرمة المجتمع ، فلهذا السبب كان أكثر المدافعين عن مذهبه الحر نساء فى مسرحياته •

ومن هنا استخلص النقاد أن أبسن من أنصار تحرير المرأة • وغير خاف أن مسرحيات أبسن قامت بدور كبير فى الدعوة الى حرية المرأة وترجمت الى لغات العالم كافة ومثلت على جميع المسارح الاوربية والامريكية

وقد ساعد على رواج مسرحيات أبسن أن المرأة فى مختلف البلاد أخذت تطالب بالتحرير فى ذلك الوقت • وهبت الكاتبة النرويجية (أستا هنشتين) تدعو بحرارة زائدة الى تحرير المرأة وتتخذ من مأساة سيدة سويدية مع طالب نرويجى مخادع عبرة وعظة ودافعا الى تحرير المرأة •

تلك نبذة وجيزة عن هنريك ابسن رائد المسرح الحر فى أوربا ، ومهما وجه الى مسرحياته كثير من الانتقادات فانه أصبح صاحب مدرسة حرة فى المسرح الحديث بلا منازع ، ولسنا بصدد بيان نصيب مسرحياته من الصواب أو الخطأ ومن الحق أن الخطأ انما بصدد تسجيل أثر صاحب مدرسة مسرحية اقتحم انتاجه الفنى مختلف الاقطار والأمصار وسار عبر البحار !

تم الكتاب



١٥٧ شارع عبيد ــ روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ — ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ — ٤٠٨١٤

مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

